طه عبد الباقي سرور

الشعراني
والتصوف الإسلامي

الناشر
محمد عبد الهادي المهندي

مطبعة العلوم ١٦٢ شارع الخليج بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الأفق الأعلى

الشعرانى هو آخر نجم بزغ فى الأفق الأعلى . الأفق الأعلى للتفكير الاسلامى ، والنهج الصوفى .

ولقد درج التصوف مع الاسلام منذ يومه الأول ، أفقا خاصا للقلوب المتصدعة من خشية الله ، المتفجرة الينابيع بحبه ونجواه ، وسماءا مجاوة للعقول السابحة فى عجائب الكون ، المفكرة فى ملكوت السموات والأرض ، وما فيهما من آيات للموقنين ، العقول التى أودع فيها المؤمن نور الحكمة ورزقها جلاء البصيرة ، وفتوحات العبادة والطاعة . واتقوا الله ويعلمكم الله .

والقلب المتصدع العابد ، والعقل المفكر المؤمن ، والنفس المطمئنة الذاكرة المحبة ، يؤلفون معا ، النفحة العلوية ، المعلمة الملهمة ، التى ترتفع بالإنسان وترتفع حتى يكون من الملهمين الربانيين المندرجين تحت أفق قوله تعالى (عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما)

ان شئت فسم تلك المثاليات بالتصوف ، أو بالأفق الأعلى ، وان أحببت فليكن عنوانها نورانية العبودية ، أو الروحانية الاسلامية .

فالتصوف هو جماع تلك المثاليات ، وهو الذى يرسم الأفق الأعلى لمن يتسامى ، الأفق الأعلى المشرق بالروحانية الاسلامية ، الأفق الأعلى الذى تتجلى فيه العبودية الكاملة بأنوارها والهاماتها .

وسبيل التصوف إلى تلك الآفاق ، هو الاستعداد الفطرى ، الممثل فى الحب الإلهى ، ثم الذكر الدائم ، والخلق الكامل ، والتطوع المتواصل ، لما فوق الفرائض والنوافل .

وفي الحديث القدسي « فلا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولأن استعاذني لأعيذنه »

تلك هي مرتبة النوافل وما أدراك ما هي، ولكن فوقها مرتبة التطوع الدائم، وهي جعل الحياة كلها ذكرا وعبادة «واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين» «كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون»، «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما»

وأفق تلك المرتبة، مرتبة العبودية الكاملة الأثر المشهور «عبدي أطعني تكن ربانيا تقول للشيء كن فيكون».

وهذا الأفق جبار المرتقى لا يذلل لكل طالب، فلا يطيقه ولا يصبر عليه إلا صفوة من عباد الرحمن الذين اجتباهم واصطفاهم، وجعلهم أئمة وهداة وورثة لأنوار النبوة المحمدية «وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم»

وليس ما نقول ضربا من الأشواق الوجدانية والسبحات الخيالية، فقد روى أنس رضي الله عنه قال: «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي إذ استقبله رجل شاب من الأنصار فقال له النبي صلوات الله عليه، كيف أصبحت يا حارثة، قال: أصبحت مؤمنا بالله حقا. قال انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة، قال: يا رسول الله، عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري فكأني بعرش ربي بارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وإلى أهل النار كيف يتعاوون فيها قال: أبصرت فالزم عبد نور الله الإيمان في قلبه»

وفي رواية أخرى عن محمد بن الحسن «لكأني أنظر إلى ربي عز وجل فوق عرشه. يقضي بين خلقه»

ذاك عبد نور الله الإيمان في قلبه — وما أجمل وأحلى هذا التعبير

النبوى فعاش فى الأفق الأعلى ، فتجلت عليه روح الاسلام ، فحلق بأجنحة قلبه النورانية حتى رأى الملكوت الاسنى فشاهد النار والجنة والعرش ثم ارتقى فرأى الله جل جلاله وهو يقضى بين خلقه ، رأى وشاهد تلك الآيات بعين الموقنين . عين الايمان القلبى ، وهو يخطر بقدميه على السيار الارضى .

وقصة الخضر ، العبد الذى اتقى فاهتدى . فآتاه الله من لدنه علما باطنيا ربانيا معجزا لا يسابقه علم ولا تدانيه معرفة

ذلك هو التصوف الذى كان له أكبر الأثر فى توجيهات العالم الاسلامى الفكرية والتعبدية ، بل أكبر الأثر فى فتوحاته وانتصاراته العالمية ، وفى رسم أهدافه ومثله العليا الاجتماعية والخلقية والروحية

ذلك هو التصوف الذى استحال إلى شخصيات وبطولات ملهمة عبقرية تتفاعل مع الجماهير وتقودها فتهديها وترشدها ، واستحالت تلك البطولات إلى قوة روحية زاحفة مشرقة بالنور فياضة بالايمان ، تطير بألوية الاسلام وتركى شعلته وتحفظ مثاليته ، وتفتح له الآفاق فى شتى الميادين العقلية والعلميه

وهذا هو التفسير الصادق لهذا الحشد الحافل من الشخصيات العجيبة والبطولات الفذة التى حفل بها تاريخ التصوف ، آيات معجزات لا تسمو عبقريات الدنيا اليهم ، ومثاليات تخجل حياتنا حين نتحدث عنهم ، وقوة روحية غلابة ملهمة لم يعرفها تاريخ الايمان العالمى لسواهم

ولا بد لنا حينما نتحدث عنهم من أن نعقد الصلات بينهم وبين الروح الصوفى الذى يعد مصدر هذه الطاقة ومشعل نورها وصانع اجنحتها

ومقياس عظمة كل عبقرية من تلك العبقريات اللدنية هو استعدادها للترقى فى المعارج العلوية ، وطاقتها على تحمل العبودية الكاملة ، والحب الإلهى الفاتح لباب الفيض الربانى

والباب الموصل لتلك المعارج ، هو الاقتداء الكامل . والاحتذاء الصادق

الصارم، بالمثل الأعلى للإنسان الكامل، بالنبوة المحمدية صلوات الله وسلامه على صاحبها

تلك النبوة التي تلقت الفيض كله كاملا، واستوعبته واطاقت تلقيه وصبرت عليه وعاشت له وبه فكانت رمزه الأعلى، وكانت أفقه الأسمى، وكانت معينه الزاخر الفياض، الذي تكفي قطرة منه لصوغ عبقري ملهم من هؤلاء العباقرة الملهمين.

العباقرة الملهمين الذين عاشوا تحت أفق خاتم الأنبياء وسيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم كل بقدر ما فيه من استعداد للتلقي واستعداد للاستيعاب واستعداد للصبر والتحمل واستعداد للفيض والاشراق

وهذا هو السر في فهم المتصوفة واجلالهم للنبوة المحمدية، فهما واجلالا لا أغالي إذا قلت أنه يفوق مثيله في قلب كل محمدي.

لقد آمنوا بأن محمدا رسول الله، هو المفتاح الرباني للأبواب الإلهية، حيث تهطل الفيوضات والفتوحات، وان السر كل السر في المفتاح والباب، فكل من حاد عن الطريق السوي، طريق الهدى المحمدي، فقد المفتاح وتوارى عنه الباب، فحرم من الفتح والعطاء وضل سواء السبيل

تلك هي المدرسة التي أنجبت عباقرة التصوف، مدرسة الاحتذاء والاقتداء بالسنن المحمدي، مدرسة العبودية الكاملة، ولقد كانت تلك المدرسة ولا تزال، قلب الاسلام وروحه وأفقه الأعلى

وتلك المدرسة المحمدية، مدرسة التفكر في آيات الله، والتعبد المتواصل في محاريب الحياة، وكل ما في الحياة محاريب ومساجد للمؤمنين الموقنين، مدرسة الحب الإلهي بما فيها من اشراق والهام وفيوضات، هي التي أنجبت أبا المواهب، الزعيم العملاق عبد الوهاب الشعراني

والشعراني عجيبة ضخمة من عجائب تلك المدرسة. أو إن شئت فعجيبة من عجائب التصوف وصنيعة من صنائع الايمان، ولطيفة من لطائف التقوى، وقبس من اقباس النور المفاض على الأرواح المتطهرة العابدة

فدعك من البحث عن مدرسته العلمية ، ودعك من البحث عن منهجه ودراساته ، فقد كونته الهامات القلب ، وسبحات الروح ، وأبرزته الطاعة والخلوة ، وأنجبته الحضرة ، ورعته وحبته وزكته ، عناية الله ورضاه

وليس معنى هذا أن الشعرانى لم يكن عالما فحلا ودارسا مبرزا على معاصريه فى علومهم ومعارفهم ، وإنما نريد أن نقول أن تلك العملاقية العلمية التى ارتفعت به منارا . فنت فى نوره علوم معاصريه ، وتضاءلت حياله معارف مصاوليه ومجادليه ، كان سرها أنها من الأفق الأعلى ، من النبع الربانى الذى لا تفنى الهاماته ولا تنضب امداداته

وحسب الشعرانى أن رجال الاستشراق عكفوا على كتبه يستنطقونها ويتلمسون أسرارها ويقلبونها على أوجه شكوكهم الملحة ، ويعرضونها على موازينهم القاسية ، وخرجوا بعد الشوط الطويل يحنون الهامات أمام العملاق الضخم الشامخ . ويطلقون القول معترفين فى وضوح وصراحة بأن الشعرانى أعجوبة من أعاجيب العباقرة المتصوفين ، أعجوبة لا يكاد تاريخ الاسلام يعرف لها مثيلا

يقول المستشرق ، فولرز ، (إن الشعرانى كان من الناحية العلمية والنظرية صوفيا من الطراز الاول ، وكان فى الوقت نفسه كاتبا بارزآ أصيلا فى ميدان الفقه وأصوله ، وكان مصلحا يكاد الإسلام لا يعرف له نظيرا ، وإن كتبه التى تجاوزت السبعين عدا من بينها أربعة وعشرين كتابا تعتبر ابتكارا محضا أصيلا لم يسبق إليه أبدا ولم يعالج فكرتها أحد قبله .)

ويقول العلامة ، ماكدونالد ، (إن الشعرانى كان رجلا دراكا نفاذا مخلصا واسع العقل) ويقول فى موضع آخر ، إنه كان يجمع بين أعظم المميزات وإنه كان مشرعا ذا أصالة ونفاذ . وكان عقله من العقول النادرة فى الفقه بعد القرون الثلاثة الأولى فى الإسلام . وإنه رجل أخلاق تهزه أنفة عالية)

ويقول المستشرق — نيكلسون — عنه ، إنه أعظم صوفى عرفه العالم

الإسلامى كله وإنه منذ فتح المغول العالم الإسلامى ، ركدت الحركة الفكرية فى الاسلام واقتصر علماؤه على الجمع والتقليد، فلا نجد بوادر انطلاق او انتاج خصب منتج أو أى أثر لتفكير أصيل وضىء ، باستثناء شخصيتين شاذتين هما ابن خلدون المؤرخ، والشعرانى الصوفى، وكان الشعرانى بالذات مفكرا مبدعا أصيلا ، أثر تأثيرا واسع المدى فى العالم الاسلامى، يشهد به إلى يومنا الحاح القراء الحاح متواصلا فى طلب مؤلفاته ،

تلك هى شهادات العلماء العالميين الذين وزنوا الشعرانى بموازينهم العلمية الدنيوية ، لا بميزان النورانية الصوفية ، ومع هذا فقد ارتفعت به موازينهم إلى القمة المنفردة شموخا وخلودا

ولنعد إلى الأفق الأعلى ، أفق التصوف الوعر العسير المرتقى ، لقد صعد الشعرانى فى معارجه، وتسنم الذروة فى محرابه، وتزعم وساد فى آفاقه

والصعود فى تلك المعارج ، وتسنم الذروة والزعامة والسيادة الصوفية، قد اتيحت من قبل الشعرانى لغير قليل فى هذا الأفق

ولكن الشعرانى كان آخر نجم فى ذلك الأفق ، آخر نجم بحسب الترتيب الزمنى، ولهذا انفرد وحده بخوض اعنف معارك التصوف فى أحلك الأزمنة وأقساها وأشدها

وحسبه أنه حارب كل معاصريه حتى المتصوفة ، المتصوفة اسما لا معنى فلقد فقد التصوف فى عصره حلاه وعلاه

حارب وحده، وانتصر وحده، وارتقى الذروة وحيدا ، وأقام للتصوف دولة عاشت طوال حياته عزيزة غلابة

حارب وانتصر فى أشد العصور الاسلامية رهبة وظلاما وجمودا وجهلا فاطلق آية النور المبصرة التى تمحو الظلمات ، وأعاد للفكر الاسلامى قوته وهداه ، وأعاد إلى القلوب القلقة إيمانها وتقواها

كانت الأمة الاسلامية قبيل عهده تعيش فى ظلمات يعلو بعضها بعضا ،

ظلمات خارجية تمثلت فى أمواج بربرية من جنود المغول والتتر قادمة من المشرق تجتث الشعوب الاسلامية من أساسها وتدمر حضارتها وتطفىء شعلتها وأمواج صليبية قادمة من المغرب ، فوارة بالغضب والتعصب مشرعة السيف بالحقد والبغضاء

وفى الداخل كانت الظلمات أشد وأقسى ، كان الركود الروحى هو العلة الكبرى ، فان التسوية التى قام بها الغزالى بين المتصوفة والفقهاء كانت قد اهدرت من جانب الأشاعرة الذين سلوا سيف الاجماع المصطنع ضد المفكرين تارة وضد المتصوفة تارة أخرى

حتى إن تاريخ الفكر الاسلامى بعد الغزالى منذ القرن السادس الهجرى هو تاريخ النزاع المشبوب بين المتصوفة والأشاعرة ، من جهة وبين المتصوفة ورجال الحديث من جهة أخرى ، وأعقب هذا الصراع العنيف هبوط فكرى عام فى قواهم جميعا ، كما تنتج المعارك الحربية الضعف والانهيار فى القوات المتحاربة ، وتحمل العالم الاسلامى بأسره وزر تلك المعارك الجدلية الهوجاء جهلا وجمودا ، وبلادة ذهنية ، وخمودا روحيا قاتلا

وجاء ابن تيميه فى اواخر القرن الثانى عشر للميلاد فى قعقعة وزوبعة ، يملأ الدنيا صياحا ضد كل مفكر سواه ، ويخص بحملته الكبرى ومعركته العظمى التصوف والمتصوفة

نادى ابن تيميه بالمعنى الحرفى للقرآن ولم يقبل فى الآيات المجسمة تأويلا وفسق كل المذاهب الاسلامية فى علم الكلام ، وحرم الاجتهاد على الناس جميعا وأباحه لنفسه ، فحدد صفات الله تعالى حسب رأيه . وحرم زيارة الأولياء وقراءة القرآن لهم ، وتغالى فنادى : بأن من يزور قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه تقربا أو طلبا لشفاعة فهو ضال مبتدع

وعاش ابن تيميه حليف السجون ومات سجينا ، ولكنه كان قد اطلق صيحته ملتهبة متوقدة الجمر وتناول اتباعه كلماته فضخموها وألبسوها أردية

فضفاضة زادت نار الحرب وقودا وضراما . حتى امتلأت شوارع القاهرة بالصراع والدماء بين اتباعه والمتصوفة ، كما يقول الجبرتى

وكان السبب الأكبر فى هذا الجدل والحوار ، وفى تلك الخصومات المجنونة الرعناء ، هو أن النهضة الاسلامية العلمية كانت قد خمدت جذوتها وخبأ ضوؤها وأخـــذت البدع والخرافات والأساطير تنطلق فى أفق العالم الاسلامى

لقد ذبل المشعل الذى ظل يتقد عشرة قرون والذى أنارت أشعته الفكرية أرجاء الوجود . ذبل بل فنى مخنوقا فى الظلمات

ويكفى لتصوير ظلمات هذا العصر . ان التصوف وهو قلب الاسلام النابض . أصبح فى تلك الصورة المهلهلة التى رسمها الشعرانى بقلمه

« كان التصوف حالا فصار كارا ، وكان احتسابا فصار اكتسابا ، وكان استتارا فصار اشتهارا ، وكان إتباعا للسلف فصار إتباعا للعلف ، وكان عمارة للصدور فصار عمارة للقرور ، وكان تعففا فصار تملقا ، وكان تجريدا فصار ثريدا »

يكفى لتصوير هذا العصر المظلم . أن الشعرانى يحدثنا عن رجل يسمى الشيخ شعبان المجذوب كان يجلس على كراسى المساجد أيام الجمع وغيرها . ويقرأ مايزعم أنه قرآن كريم . وقد سمعه الشعرانى يقول على طريقة قراءة القرآن « وما أنتم فى تصديق هود بصادقين . ولقد ارسل الله لنا بالمؤتفكات يضربوننا ويأخذون أموالنا ومالنا من ناصرين »

ثم يعقب على هذا قائلا « اللهم اجعل ثواب ماقرأناه من الكلام العزيز فى صحائف فلان وفلان » ، ويعلق الشعرانى قائلا « ولم اسمع أحدا ينكر عليه شيئاً من حاله ، بل يعدون رؤيته عيدا عندهم . (١)

وكان زميله إبراهيم العريان يصعد إلى منبر المسجد عاريا ويخطب الناس قائلا « السلطان ودمياط وباب اللوق وبين الصورين وجامع طولون ، والحمد لله رب العالمين » ، فيحصل للناس بسط عظيم كما يقول الشعرانى . (٢)

---

(١) الطبقات الكبرى ج (٢) ص ١٦٠

(٢) « « ج (٢) ص ١٢٤

فى تلك الظلمات وفى هذا الجو الزاخر بالجهالات ، بزغ نجم الشعرانى متلألأ مشرقا كأنه ظاهرة كونية جاءت فى موعدها المحدد ووقتها المرسوم.

جاء كموجة صوفية أطلقها البحر الأعظم تجتث كل شيء من جذوره ثم تنحسر فتملأ الدنيا خصبا ونماء وبركة ونورا .

وهبه الله ومن عليه ،فكان كماصاغته عناية الله ورحمته ، وكان أينما شرع قلبه تحف به الهبات والمن فيأتى كله زخارا باليقين والهدى .

جاء مكافحا مصلحا ، وزعيما قائدا ، ومرشدا هاديا،فتمثلت فيه خصائص تلك الصفات فكان كما لقب، أبا المواهب .

حرر التصوف من الأساطير والبدع ، وجلاه محمديا قرآنيا ، كما أراده الله لعباده ، قوة روحية محلقة فى الأفق الأعلى .

وحرر الفقه من جموده وتزمته فكان الأصولى الألمعى الذى مزج الفقه بحرارة الإيمان فانقذه من الجفوة والجفاف . وحببه إلى الجماهير ، يوم جعله لامجرد أحكام شرعية فحسب ، بل حقائق روحية مشرقة .

وحرر علم الكلام — التوحيد — من نزوات المجسدين واهـواء الجادلين ، واعاده إلى نوره ورونقه الإيمانى الذى عرفه واهتدى به الصدر الأول والتابعون .

وانقذ الأمة الإسلامية من الجدل والحوار ، والجرى وراء الأوهام والخيالات ، وردها إلى النبع الصافى والعمل الخالص لوجه الله .

ولم ينسه جهاده الدينى . زعامته الشعبيه فكان المصلح الاجتماعى المدافع عن الفقير والمسكين والضعيف ، القائم فى وجه الولاة والحكام يرفع كلمة الحق وينتزع حقوق الضعفاء من الأقوياء

ووقفت الدنيا فى عهده ترقب كلمة من فيه ، أو إشارة من يده ، فهو الملجأ والملاذ للمظلوم ينشد حقا ، وللظالم يطلب رحمة ، وهو المرشدالهادى

إلى حقائق الإيمان ولطائف العقائد ، ومشكلات الفكر والحياة ، وهو الزعيم الحبيب الذى إذا غضب ، اضطربت لغضبه قلوب الملايين .

وهو بعد هذا وذاك ، مؤرخ التصوف والمتصوفة ، وخليفة الغزالى الاوحد على الجوانب الاخلاقية والاجتماعيـــة والتعبدية فى الاسلام ، والمدافع الأكبر عن الشيخ الأكبر محي الدين بن عربى فيلسوف التصوف العبقرى ، ومحيي عالم الزوايا التى يعمرها القرآن والتى يسمع فيها ذكر الله آناء الليل وأطراف النهار .

وقد روى عن النبى صلوات الله وسلامه عليه ، عن ربه عز وجل ، فى الحديث القدسى ، إن أوليائى من عبادى الذين يذكرون بذكرى وأذكر بذكرهم .

تلك علامة المتصوفة ، وآية الشعرانى ، وفى الخالدين من يذكر بذكر الله ، ومن يذكر الله بذكره . . .

طه عبد الباقى سرور

نشأته وحياته

أسرته :

إلى الدوحة العلوية الهاشمية يرتفع نسب الشعراني ، فجده الأعلى هو محمد ابن الحنفية بن على بن أبي طالب رضى الله عنهما .

وقد هاجر أجداده إلى المغرب الأقصى فى الموجات المهاجرة من البيت العلوى التى اختارت الأطراف النائية من الأمبراطورية الإسلامية فرارا من الملاحم المتتابعة بينهم وبين البيت الأموى تارة ، وبين البيت العباسى تارة أخرى .

وفى المغرب الأقصى استطاع العلويون أن يؤسسوا دولا ، وأن ينشئوا حضارات وأن يظفروا بالحب والتأييد من شعوب الشمال الأفريقى كافة .

ولكنهم مع هذا لم يستطيعوا أن يوحدوا كلمتهم ودولتهم ، بل انقسم بيتهم إلى بيوت وتفرق جمعهم إلى قبائل وبطون ، ولهذا تعددت دولهم ، وتعددت بيوتهم المالكة ، وتعددت قبائلهم الحاكمة .

وكان الملك فى مدينة تلمسان وما جاورها لقبيلة بنى زغلة ، وإلى تلك القبيلة ينتسب عبد الوهاب الشعرانى .

ومن خصائص العلويين ، أن الملك لم يصرفهم عن العلم ، ولم يباعد بينهم وبين الولاية الدينية ، والزعامة الروحية ، فكان منهم الملوك ، وكان منهم الأئمة الهداة .

ولهذا نرى فى تاريخ بنى زغلة ، أسرة الشعرانى ، الملك والتصوف يندرجان معا ويعيشان معا ويتقاسمان الحياة سويا ، ونشاهد جده موسى ابن السلطان أحمد يؤثر طريق الله على الملك ومجده ، فيتلمذ على ابن مدين الصوفى ، ويترك المغرب مهاجرا إلى مصر تلبية لأمره .

ولقد أرخ الشعرانى لنفسه فى كتابه المنن فلنتركه يحدثنا عن نسبه . . .

« أحمد الله تعالى حيث جعلنى من أبناء الملوك (١) فأنا بحمد الله تعالى ، عبد الوهاب بن أحمد بن على بن أحمد بن على بن محمد بن زوفا بن الشيخ موسى المكنى فى بلاد البهنسا بابى العمران جدى السادس ابن السلطان أحمد بن السلطان سعيد بن السلطان قاشين بن السلطان محيا بن السلطان زوفا بن السلطان ريان بن السلطان محمد بن موسى بن السيد محمد بن الحنفية بن الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه .

وكان جدى السابع الذى هو السلطان أحمد (٢) سلطانا بمدينة تلمسان فى عصر الشيخ ابى مدين المغربى ولما اجتمع به جدى موسى قال له الشيخ أبو مدين لمن تنتسب ، قال . والدى السلطان أحمد ، فقال له إنما عنيت نسبك من جهة الشرف ، فقال انتسب إلى السيد محمد بن الحنفيه ، فقال له ملك وشرف وفقر — أى تصوف — لايجتمعن ، فقال ياسيدى قدخلعت ماعدا الفقر ، فرباه فلما كمل فى الطريق أمره بالسفر إلى صعيد مصر ، وقال له أسكن بناحية (هو (٣)) فان بها قبرك ، فكان الأمر كما قال »

وإذن فالشعرانى يقرر أن جده موسى قدحضر إلى مصر باشارة صوفية من الامام أبى مدين ليتولى تربية المريدين والسالكين ، ويقيم للإيمان دولة على ضفاف النيل ، مؤثرا طريق الله ومجاهداته ، على نعيم الملك وامجاده .

وهذا الأمر نهج صوفى نعرفه من تاريخ التصوف ، فالمتصوفة يعتبرون أنفسهم المدرسة الاسلامية الكبرى التى تهيمن وتشرف على القلوب المحمدية وتهيمن وتشرف وتسئل أيضا عن النهضة الاسلامية والعبادات الربانية ، ينظر المتصوفة إلى العالم الاسلامى على اعتباره أمة واحدة ، هم رأسه المفكر وقلبه النابض ، ولهذا درج كبار المتصوفة على تربية أفذاذ الرجال حتى إذا كملوا وأعدوا بعثوا بهم إلى المراكز الاسلامية التى تحتاج إليهم دعاة وهداة

---

(١) المنن جزء ١ ص ٣٢

(٢) هو أبو عبد الله أحمد الزغلى سلطان تلمسان وما والاها

(٣) احدى مدن مديرية قنا

وإذن فقد استقر الشيخ موسى أبو العمران ببلدة (هو) وهى قرية كبرى من قرى الصعيد الأعلى ، وأهلها من قبائل الهوارة أولى البأس والعصبية الاسلامية،واسس الشيخ موسى فيها زاويةغدت مركزا من مراكز التصوف فى مصر ومهدا من المهود التى يستنبت بها رجال الدعوة الصوفية

ولم يحدد لنا التاريخ السنة التى هاجر فيها موسى إلى مصر ، ولكن كتب التاريخ حددت لنا تاريخ وفاته ، فقد توفى ببلدة (هو) عام ٧٠٧ ﻫ بعد أن نجحت دعوته واهتدى بهديها جمهور ضخم فى الصعيد الأعلى

واستمرت أسرة الشعرانى بالصعيد تحمل لواء العلم والولاية حتى مطالع القرن التاسع الهجرى فهاجر عميدها أحمد إلى ساقية أبى شعرة بالمنوفية وأسس بها زاوية للعلم والعبادة . والتف الناس حوله ينهلون من معارفه وفتوحاته ، فقد عرف بالتفوق فى العلوم الصوفية رغم أميته ، كما اشتهر بالولاية والنفحات ، وانتقل إلى جوار ربه عام ٨٢٨ ﻫ

وحمل اللواء بعده حفيده أحمد الذى أوتى حظا من العلم المعروف فى الأزهر فى عهده وحظوظا من العلوم الربانية التى اختص بها المتصوفة .

ثم تأذن ربك لهذا البيت الكريم ، بيت الملك والدين ، بأن عهد كماله وتمامه قد حان فوهبه فى ليلة مباركة ، الطفل العملاق عبد الوهاب الشعرانى

مولده . .

ولد الشعرانى على أصح الروايات وأشهرها فى ٢٧ من شهر رمضان عام ٨٩٨ ﻫ وكان مولده فى بلدة « قلقشندة » وهى قرية جده لأمه ، ثم انتقل بعد أربعين يوما من مولده إلى قرية أبيه وإليها انتسب ، فلقب بالشعرانى ، وعرف بهذا اللقب واشتهر به ، وان كان هو قد سمى نفسه فى بعض مؤلفاته بالشعراوى

ولقد اضطرب رجال التاريخ فى تحديد مولده ، فقد ذكر صاحب النور السافر تاريخا لمولده قبل هذا التاريخ بقليل ، وقد ذكر صاحب المناقب الكبرى

تاريخا آخر ، وأما المناوى وعلى مبارك والمستشرق شاخت ، فقد أيدوا التاريخ الذى ذكرناه

ونحن ترجح رواية المناوى لأنه تلميذ الشعرانى الأول وصفيه وصديقه وهو بعد هذا أكبر المؤرخين الصوفيين بعد الشعرانى ، ويزداد ترجيحنا لهذه الرواية اتفاقها مع رواية على مبارك وهو من أدق من أرخ لهذه الفترة من التاريخ .

واضطرب رجال التاريخ أيضا فى الحديث عن طفولته ونشأته ، فذهب المستشرقان «كروبر» و «نيكلسون» إلى أنه اشتغل فى مطلع حياته — بالحياكة —

ولكن المستشرق «فولرز» يسخر من هذا القول قائلا «إن حياة الشعرانى كانت زاخرة بالعبادة حافلة بالتعليم فلم يكن من الميسور أن يجد وقتا يحترف فيه عملا»

ولست أدرى من أين جاء المستشرقان بتلك الأقصوصة . وتاريخ طفولة الشعرانى صريح فى أنه لم يضيع لحظة واحدة فى غير العلم والعبادة، فقد حفظ القرآن وهو فى سن التمييز كما يقول ودرس كتب النحو قبل العاشرة .

فهل هذا تاريخ رجل وهب نفسه للعلم والعبادة، أم تاريخ من يشتغل بالارتزاق من الحياكة . ؟ والشعرانى يقول فى صراحة إن من من الله عليه «أنه لم تكن هناك عوائق دنيوية تعيقنى عن طلب العلم والعبادة . وكانت القناعة من الدنيا باليسير سداى ولحمتى ، وهذه القناعة أغنتنى عن الوقوع فى الذل لأحد من أبناء الدنيا ، ولم يقع لى أنى باشرت حرفة ولا وظيفة لها معلوم دنيوى من منذ بلغت ، ولم يزل الحق تعالى يرزقنى من حيث لا احتسب إلى وقتى هذا ، وعرضوا على الالف دينارا وأكثر فرددتها ولم أقبل منها شيأ وكان التجار والكبراء يأتون بالذهب والفضة فانثرها فى صحن جامع الغمرى فيلتقطه المجاورون»

وجرى رجال التاريخ على أنه انتقل إلى القاهرة مع والده ، وأن والده قد سعى له حتى أدخله الأزهر الشريف .

وتلك الروايات أيضا تنحرف عن الحق وتجانب الصواب ، فان الشعرانى وهو أصدق من يؤرخ لنفسه يقول فى المنن « إنه حفظ فى قريته القرآن الكريم وهو فى باكورة طفولته ، ثم حفظ أبو شجاع والاجرومية ودرسهما على أخيه الشيخ عبد القادر بعد وفاة والده .

وإذن فقد مات والده كما ماتت والدته قبل حضوره إلى القاهرة ، وكان هذا كما يقول من من الله عليه إذ نشأ يتيما من الأبوين ، فكان نصيره ووليه الله .

ولقد مات والده عام سبع وتسعمائة للهجرة ودفن فى زوايته بساقية أبى شعره ، وتاريخ انتقال الشعرانى إلى القاهرة كما أرخه بنفسه يأتى بعد تاريخ وفاة والده بثلاثة أعوام .

الشعرانى فى القاهرة

مات أبوه وتركه طفلا يتيما فقيرا ، ولكن هذا الطفل اليتيم الفقير ، كان عجيبا ، كان عابدا متبتلا مستغرقا فى صلواته وأذكاره ، استغراقا لا يعرف فى مثل سنه ، وحسبك أنه كان يقوم الليل وهو فى الثامنة من عمره .

وكان يؤمن فى أعماق نفسه بأنه قد حف بعناية ربانية تعصمه من النقص فى دينه ، كما تعصمه من السوء فى حياته .

وكان يؤمن بهذا إيمانا قلبيا وجدانيا ، ويسوق على إيمانه حشدا من الاحداث والأدلة التى وقعت له فى طفولته ونجاه الله منها وحفظه من عواقبها .

وكان دارسا فطنا ألمعيا ذا شغف ونهم بالعلوم ، وحسبك أنه قبل أن يتم العاشرة كان قد درس من كتب النحو ما أهله لمجالسة العلماء .

وكان يؤمن أيضا إيمانا قلبيا وجدانيا بأن الله قد وهبه فوق الذاكرة الواعية الحافظة فهما فى العلم وبصيرة فى إدراك غوامضه ودقائقه .

مات أبوه فكفله أخوه العالم الصوفى الورع الشيخ عبد القادر . وعبد الوهاب يدين لأخيه بالكثير من التوجيه ، والحب الصادق ، والرعاية الكاملة الواعية المانعة ، بل ويدين له فوق ذلك بالحضور إلى القاهرة ، حيث تفتحت أمامه الآفاق .

ويقص علينا الشعرانى تاريخ حضوره إلى القـــاهرة بذلك الأسلوب الآخاذ الصادق الذى عرف عن الشعرانى وعرف به . فيقول .

« وكان مجيئى إلى القاهرة افتتاح سنة عشرة وتسعمائة ، وعمرى إذذاك أثنتا عشرة سنة فأقمت فى جامع سيدى أبى العباس الغمرى ، وحنن الله على شيخ الجامع وأولاده فمكثت بينهم كأنى واحد منهم آكل ما يأكلون وألبس ما يلبسون ، وأقمت عندهم حتى حفظت متون الكتب الشرعية وآلاتها على الأشياخ .

ثم يقول « ولم أزل بحمد الله محفوظ الظاهر من الوقوع فى المعاصى معتقداً عند الناس ، يعرضون على كثيرا من الذهب والفضة والثياب ، فتارة أردها وتارة أطرحها فى صحن الجامع فيلتقطها المجاورون »

والشعرانى هنا يغفل الاشارة إلى حقبة من تاريخه فى طلب العلم ، وهى الفترة التى مكثها فى الأزهر .

فاجماع رجال التاريخ على أنه حضر من قريته إلى الأزهر ، حيث قضى خمس سنوات يتلقى العــــلم على يد شيخه على الشونى ، الذى أحبه وقربه واصطفاه ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مسجد الغمرى بناء على مشورة شيخه على الشونى .

ومسجد الغمرى كان فى ذلك الوقت منارة العلم ومثابة للطلاب ، وكانت الحياة فيه على غرار أمثاله من المساجد التى تحولت فى العالم الإسلامى إلى

معاهد علمية ، لا يكتفى فيها بالتعليم فقط بل تجرى فيها أيضا الأرزاق من الأوقاف والهبات على من يلازمها ويتخصص للعلم فيها (١) .

ولبث الشعرانى فى مسجد الغمرى ، يعلم ويتعلم ويتهجد ويتعبد ، سبعة عشرة عاما ، ثم انتقل إلى مدرسة أم خوند ، وفى تلك المدرسة . بزغ نجم الشعرانى وتألق تألقا ملأ الدنيا حوله صياحا . صياحاً امتزج فيه هتاف الاعجاب من محبيه بعاصفة الانتقاد والافتراء من حساده وشانئيه .

وقد حاول بعض المستشرقين ، وجاراهم بعض دراسى الشعرانى ، من المعاصرين أن يلقوا ظلالا من الشكوك والريب حول إنتقاله المفاجىء من مسجد الغمرى إلى مدرسة خوند فحاكوا أسطورة خيالية حول حب الشعرانى لأبنة شيخ مسجد الغمرى . وغضب والدها لذلك . ولم يأتوا بدليل واحد على دعواهم . وإنما أقاموها استنتاجا خياليا . لأنهم كما يقولون لم يجدوا مبرراً لهذا الانتقال فلا بد إذن أن يكون هناك ثمة سبب خفى . وهذا السبب الخفى لابد وأن يكون شجارا بين الشعرانى وشيخ المسجد . وهذا الشجار . لابد وأن يكون أساسه حبا فاشلا . بين الشعرانى وأبنة الشيخ .

وتلك الاسطورة الاستنتاجية أشبه بالروايات المهلهلة التى أولع بها كتاب القصص الذين لا ينظرون إلى الحياة . إلا من وراء عدسات الخيال الجنسى .

ويحدثنا على مبارك عن تلك الفترة من حياة الشعرانى فيقول « لقد راض الشعرانى نفسه على النهج الصوفى وهو فى جامع الغمرى . فطار ذكره وذاع فى الناس أمره . وكان شيخه على الشونى قد أذن له فى أن يرتب بهذا المسجد مجلسا للصلاة والسلام على رسول الله . ولكن أولاد الغمرى أكل

---

(١) يقول ابن خلكان ج ١ ص ٥٥ أنه كان فى كل جامع كبير مكتبة لانه كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على المساجد .

ويقول المقدسى أن المساجد فى القاهرة تحولت إلى معاهد عامرة بالطلاب حتى أنه أحصى فى المسجد الجامع بالقاهرة فى وقت العشاء مائة وعشرة مجلسا من مجالس العلم .

قلوبهم الحسد على تلك المكانة العالية التى ظفر بها الشعرانى فطلبوا منه أن يغادر مسجدهم .

ويروى صاحب النور السافر . أن الشعرانى أخذته حالة وجد ذات يوم فصاح باسم الله صيحة ارتجت لها جدران المسجد . وكاد يتصدع منها بهت الشيخ أبى الحسن الغمرى وكان على كثب منه فاستفسر هذا عن صاحب الصوت . حتى إذا عرفه هم بالرحيل إلى بيت آخر . ولكن الشعرانى كان قد سبقه إلى الرحيل . تاركا وراءه كل مايملك وولى شطره بين السورين حتى حط رحاله بمدرسة أم خوند وأقام تجاهها ستة أيام . فرأى فى منامه أن رسول الله صلوات الله عليه قد أذن له بالاقامة بها . فدخلها مع أسرته .

ولا تعارض فى الجوهر بين رواية على مبارك وبين رواية صاحب النور السافر . فى الرواية الأولى . أن أولاد الغمرى نفسوا عليه مكانته حتى طلبوا منه الرحيل عن مسجدهم .

وفى الرواية الثانية أن الشيخ تظاهر بالرحيل لسبب تافه يضمر وراءه أكثر من معنى ، وادرك الشعرانى الغاية والهدف من هذا التظاهر فسارع هو بالانتقال أدبا مع شيخه واختصارا للخطوة الثانية التى لاريب فيها بعد أن طغى اسم الشعرانى على الشيخ وعلى أسرة الشيخ .

واذن فهذا الانتقال كان سره التنافس والحسد لا الحب والهوى . كان ضرورة طبيعية للشعرانى فقد آن أن يستقل بنفسه وبمجالسه العلمية . وآن له أن يكون صدار لهذه المجالس لا مجرد تابع وتلميذ .

الشعرانى طالب العلم

جاء الشعرانى من قريته إلى القاهرة مهاجراً فى سبيل العلم فعاش تحت ظلال المساجد ليله ونهاره ، متبتلا فى طلب العلم ، عالما فى التعبد ، عاش للعلم والتقوى ، نقياً طاهراً مجداً مكافحاً .

وقد اتصل منذ يومه الأول بالقاهرة بصفوة علمائها . جلال الدين السيوطى ، وزكريا الانصارى ، وناصر الدين اللقانى ، والرملى ،والسمنودى واضرابهم وقد أفاض الشعرانى فى ذكر أساتذته مما استغرق صفحات وصفحات من كتبه . كما أفاض فى ذكر اجلاله لهم ، وحبهم له .

ودرس الشعرانى على أساتذته المكتبة الإسلامية كلها بشتيت فنونها وعلومها فى التصوف والفقه والحديث والتفسير واللغة والأصول حتى غدا كما يقول لا يتصور أحد من معاصريه أحاط بما أحاط به علما أو تخلق بما تخلق به عملا .

درس الشعرانى كل معارف عصره العلمية . دراسة فهم وتذوق بروح المجتهد المؤمن المحب، بروح الطالب المثالى. الذى ينشد الحق فلا يتعصب لمذهب من غير دليل ، والذى يجل أئمة الإسلام ورجال الفكر فيه ، فلا يسارع إلى تخطئة أحدهم ولا يبادر إلى الاعتراض عليه، لإيمانه بأن علماء الإسلام وأئمته على هدى من ربهم ،وبصيرة من نور علمهم.

ثم هو بعد ذلك خاشع القلب متواضعه فى محاريب العلم ، فإذا أدرك بفهمه لطيفة علميـة أو لمس بذكائه واستنباطه حقيقة من حقائق المعرفة فى كتاب الله وأحاديث رسوله ، فلا يجزم كما يقول بأن مافهمه أو استنبطه هو مراد الله من آيه ، أو مراد رسوله من حديثه ، تأدبا وتحرزا من دعوى العلم أو التلبس برداء كبره وغروره .

ومن خلقه العلمى أنه حفظ نفسه من الجدل والجدال ورفع الصوت فى مجالس العلم ، ولنترك الشعرانى يحدثنا عن دراساته بأسلوبه البسيط الساحر.

وثم لما جئت إلى مصر حفظت كتاب المنهاج للنووى ثم ألفية ابن مالك ثم التوضيح لابن هشام. ثم جمع الجوامع ثم ألفية العراقى. ثم تلخيص المفتاح ثم الشاطبية. ثم قواعد ابن هشام وغير ذلك من المختصرات، وحفظت هذه الكتب حتى صرت أعرف متشابهاتها كالقرآن من جودة الحفظ، ثم ارتفعت الهمة إلى حفظ كتاب الروض مختصر الروضة. لكونه أجمع كتاب فى مذهب الشافعى، فحفظت منه إلى باب القضاء على الغائب، وهو فى أواخر الكتاب، فلقينى بعض أرباب الأحوال بباب الخرق — باب الخلق — خارج باب زويله فقال لى مكاشفا، قف على باب القضاء على الغائب ولا تقض على غائب بشىء.

فما قدرت بعد ذلك على حفظ شىء منه. لكننى طالعت الكتاب ودرسته نحو مائة مرة وكنت أقرأ محفوظى للمتن فى الشرح، وأنظر كل شىء توقفت فى فهمه، حتى صار شرحه للشيخ زكريا (١) عندى نصب عينى

ثم لقينى الشيخ احمد البهلول رضى الله عنه. فقال لى مكاشفا، أقبل على الاشتغال بالله ويكفيك من العلم ما قد تعلمته، فشاورت فى ذلك مشايخى فقالوا، لا تدخل طريق القوم إلا بعد شرح محفوظاتك كلها على الأشياخ، فإذا فهمتها وتبحرت فيها، فعليك بطريق القوم،

ثم يقول: وقرأت محفوظاتى على شيوخى وهم نحو خمسين شيخا، فقرأت على الشيخ أمين الدين شرح المنهاج للجلال المحلى، وكنت أطالع على درسى هذا، القوت للاذرعى، والقطعة والتكملة للاسنوى والزركشى، والقطعة للسبكى والعمدة لابن الملقن، وشرح ابن قاضى شهبه. وشرح الروض للشيخ زكريا الانصارى، واكتب زوائد هذه الكتب على الشيخ جلال الدين، وألصق فيه أوراقا حتى ربما تصير الحواشى أكثر من الكتاب، ثم اقرؤوها كلها عليه.

---

(١) الشيخ زكريا الانصارى شيخ الازهر إبان ذلك الوقت

وقرأت عليه أيضاً شرح جمع الجوامع للشيخ جلال الدين . وحاشية الشيخ كمال الدين ، وشرح العراقي للجلال الحافظ السخاوي .

ويمضي الشعراني في الحديث عن دراساته وشيوخه حتى يذهل القارىء بذلك الفيض الدافق من الكتب التي أحاط بها وألم بدقائقها وأسرارها

الشعراني في طريقه إلى الله :

تنفس الشعراني أول ما تنفس الحياة في جو صوفي خالص . وفي بيت قوامه التعبد والتبتل ، فهو ينحدر من أسرة ترك رأسها الأول مجد الملك ورفاهيته ونعيمه ، إلى النهج الصوفي ومجاهداته ومسارح تعبداته ، ومجالي تأملاته ، وأجواء تعليقاته ، ومطالع أنواره وإلهاماته ، حتى إذا كمل وارتوى واستوى انطلق داعياً إلى الله . على بصيرة من أمره .

وقفى أبناؤه أثر خطواته . فما كان منهم إلا تقي نقي ، وعالم رباني وإمام من الهداة ، وجاء الشعراني فرأى أول ما رأى والده الصوفي صاحب الخلوة الذي كان قليلا من الليل ما يهجع ، وشاهد شقيقه العالم الصوفي الذي وهب نفسه لله . فكان يستغفر الله . مع كل نفس من أنفاسه ، والذي ترك الحلال خشية الشبهات .

وعاش الشعراني طاهراً بين أطهار ، قوته القرآن الذي حفظه قبل التمييز ولم يكن لهوه في طفولته عبث أطفال ، وشغب صغار ، بل فتح عينيه ليقرأ ويقرأ في التفسير والحديث والفقه والأصول . وليجالس العلماء ويتلقى منهم وينهل من معارفهم . وهو في الثانية عشر من عمره .

ومنّ الله عليه فكان شيوخه جميعاً في دراساته ممن جمعوا بين الدراسة العلمية ، والمناهج التعبدية الصوفية .

ولهذا رأينا الشعراني ينزع إلى التصوف ويتعجل السبيل إلى أن يشق طريقه على أيدي أرباب الطريق . ورأينا شيوخه يطلبون منه التريث حتى يستكمل العلوم الظاهرية . حفظاً وفهماً واستنباطاً .

ثم أمرني بالعزلة عن الناس مدة حتى صفا وقتي ، وكنت أهرب من الناس وأرى نفسي خيراً منهم فقال لي . اعمل على قطع إنك خير منهم . فجاهدت نفسي حتى صرت أرى أرذلهم خيرا مني.

ثم أمرني بالاختلاط بهم والصبر على أذاهم وعدم مقابلتهم بالمثل ، فعملت على ذلك حتى قطعته ، فرأيت نفسي حينئذ . أنني صرت أفضل مقاما منهم ، فقال لي اعمل على قطع ذلك أيضاً . فعملت حتى قطعته .

ثم أمرني بالاشتغال بذكر الله سراً وعلانية والانقطاع بالكلية إليه ، وكل خاطر خطر لي مما سوى الله عز وجل صرفته عن خاطري فوراً ، فمكثت على ذلك عدة أشهر .

ثم أمرني بترك أكل الشهوات مطلقاً فتركتها واكتفيت بما يسد الرمق ويمسك الحياة حتى صرت أكاد أصعد بالهمة في الهواء . وصارت العلوم النقلية تزاحم العلوم الوهبية ، ثم أمرني بالتوجه إلى الله تبارك وتعالى في أن يطلعني على أدلتها الشرعية ، فلما أطلعت عليها وصار لوح قلبي ممسوحا من العلوم النقلية لاندراجها تحت الأدلة ، ترادفت على حينئذ العلوم الوهبية ،

ثم يتحدث الشعراني حديثا طويلا عن ترقبه للواردات والالهامات والفتح ، وكيف أمره شيخه الخواص بضروب من المجاهدات لصفاء قلبه واستكمال قطع علائقه الدنيوية . وأخيراً أخبره شيخه بأن بداية فتحه ستكون على شاطىء النيل في مكان حدده له ، فإذا انتهى الشعراني من ذلك قال .

وفيما أنا واقف على ساحل النيل عند بيوت البرابرة وسواقي القلعة أنتظر وأترقب . إذا بأبواب من العلوم اللدنية انفتحت لقلبي كل باب أوسع مما بين السماء والأرض ، فصرت أتكلم على معاني القرآن والحديث . واستنبط منها الأحكام وقواعد النحو والأصول وغير ذلك من العلوم . حتى استغنيت عن النظر في كتب المؤلفين . فكتبت على ذلك نحو مائة كراسة ، فلما عرضتها على سيدي على الخواص أمرني بغسله . وقال هذا علم مخلوط بفكر وكسب

ولكن الشعرانى كان من حيث لا يشعر صوفيا كاملا من صغره . فقد زاول التصوف عملا بفطرته. فنحن نراه يكبح شهواته ويرد رغباته حتى عن الحلال المباح . ويقبل على ذكر الله ليله ونهاره حتى ليعلق فى سقف خلوته حبلا يطوق عنقه متى جلس منذ العشاء حتى مطلع الفجر. ليأمن سنات النوم وغفواته ، فإن غلبه النعاس على أمره .صب على جسمه الماء البارد .

ولقد أخذ نفسه فى العبادة منذ صغره بالأحوط والأكمل ، والأحوط عنده اجتناب المكروه كأنه حرام ، والاعتناء بالسنة كأنها واجبة وهكذا

والشعرانى نفسه يفصل هذا المقام فيقول : ان من من الله عليه انه الهمه مجاهدة نفسه من غير شيخ. لما تبحر فى العلم ، ثم بشيخ ليساعده كما يقول على إزالة الموانع التى تعوقه عن العمل بما علمه .

ولنترك الشعرانى يحدثنا بأسلوبه القلبى الساحر راويا لنا قصة عباداته ومجاهداته .

«وتركت أكل لذيذ الطعام ، ولبست الخيش والمرقعات نحو سنتين ، ثم أكلت التراب لما فقدت الحلال نحو شهرين . ثم أغاثنى الله تبارك وتعالى بالحلال المناسب لمقامى إذ ذاك. وكنت لا آكل طعام أمين ولا مباشر ولا تاجر ولا فقيه وغيرهم ممن فى كسبهم شك . وضاقت على الأرض كلها ونفرت من جميع الناس فكنت أقيم فى المساجد المهجورة.والابراج الخراب مدة طويلة وما رأيت أصفى من تلك الأيام .

وكنت أطوى الثلاثة أيام وأكثر ثم أفطر على نحو أوقية من الخبز . وضعفت بشريتى. وقويت روحانيتى.حتى كنت أصعد بالهمة فى الهواء إلى الصارى المنصوب على صحن جامع الغمرى [١] فأجلس عليه فى الليل والناس نيام . ثم إذا نزلت من السلم إلى الجامع . أنزل بجهد وتعب لغلبة روحانيتى

وطلبها الصعود إلى عالمها . فانه لا يثقل الانسان إلى الأرض إلا كثرة

---

(١) الجزء الأول من المنن

الشهوات . وهذا هو سبب تحريك الإنسان رأسه حال الذكر وتلاوة القرآن فكأن الروح تشتاق إلى القرب من حضرة ربها . إذا سمعت كلامه أو اسمه فتكاد تلحق بعالمها العلوى .

ولما غلب عليّ طلب العزلة عن الناس . تنكرت منى قلوب أصحاب . ونفروا منى حتى كأنهم لا يعرفوننى من ضيق وقتى عن مباسطتهم بالكلام اللغو

وكنت إذا فتحت مجلس الذكر بعد العشاء لا أختمه إلا عند طلوع الفجر . ثم أصلى الصبح وأذكر إلى ضحوة النهار . ثم أصلى الضحى وأذكر حتى يدخل وقت الظهر . فأصلى الظهر . ثم أذكر إلى العصر . ومن صلاة العصر إلى المغرب . ومن صلاة المغرب إلى العشاء . وهكذا فمكثت على ذلك نحو سنة . وكنت كثيراً ما أصلى بربع القرآن بين المغرب والعشاء ثم أتهجد بباقيه فأختمه قبل الفجر . وربما صليت بالقرآن كله فى ركعة . وكان نومى غلبة تخطف رأسى خطفة بعد خطفة . وخفقة بعد خفقة وكثيراً ما يغلب على النوم فأضرب أفخاذى بالسوط . وربما نزلت بثيابى فى الماء البارد فى الشتاء حتى لا يأخذنى النوم

وهذه الأمور من قاعدة ما إذا تعارض عندنا مفسدتان وجب ارتكاب أخفهما مفسدة ، ولا شك فى أن وقوف المحب بين يدى الله عز وجل فى الظلام مع تألم جسمه بالضرب . أحسن عنده من نومه عن ربه عز وجل حال تجليه مع صحة جسمه . كما أشار إليه قوله ﷺ « خصلتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » ولكل مقام رجال ، ومن طلب نفيسا خاطر بنفيس فعلم أن المحب لله فى وادى ، والمنكر عليه فى واد آخر ، ومن طالع أحوال القوم فى مجاهداتهم سهل عليه ما يكابده فى نفسه ، فقد وقع للشبلى أنه كان إذا غلب عليه النوم يضرب نفسه بقضيب الخيزران حتى ربما أفنى الحزمة فى الليلة الواحدة ، وكان صلوات الله وسلامه عليه يقوم الليل حتى تورمت قدماه ، فأنزل الله عليه « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى » الآية ،

وأخرج الشعرانى أيضاً علوم تلك الخزانة وأضافها إلى معارفه وذخائره وضمها إلى ثروته وكنوزه .

وهكذا يمضى الشعرانى مصوراً لنا بحار شيخه ومعارفه اللدنية ، شارحاً للخزن المملوءة بالكنوز التى عثر عليها فى تلك البحار ، وكيفية فتحها ومافيها من علوم استحوذ عليها واستفاد بها . وهو تصوير برعت فيه الأقلام الصوفية ومرن عليه الذوق الصوفى .

والمراد بالخزن وأقفالها وما كتب عليها وطرائق فتحها . هو فيما نعتقد الرمز إلى أسرار الذكر . وأسرار أسماء الله الحسنى . وفتوحات تلاوتها

والذكر هو سر التصوف وروحه ، كما أنه عندهم بداية الإلهام ونهايته وليس بصوفى من غفل قلبه لحظة عن ذكر الله ، أو التفكير فى آياته .

وعلى هذا النهج تصوف الشعرانى ، فكان تصوفه بداية خلوده ، وكان تصوفه فتحاً ربانياً كما يقولون . لعصره ، والعصور المتعاقبة .

فلقد ربى الشعرانى آلافاً من المريدين والتلاميذ المعاصرين له . وجعل منهم مدرسة إيمانية تذكر الله . وتدعو إلى هداه ، ولا تزال كتبه تربى وتمنح الهدى واليقين للآلاف من التلاميذ والمريدين .

وهكذا كان الشعرانى صوفيا بغير شيخ .

ويمضى الشعرانى فى وصف مجاهداته لنفسه ، وهى مجاهدات لا يطيقها إلا رجال الله . بل لا يصبر على الاستماع إليها ولا يجد مذاقها عند ذكرها إلا من أحبه الله وارتضـــاه لهداه. حتى يقبل قول الشعرانى أنه حينما طعم التراب لما افتقد الحلال فى مطعمه . خاله لحما وسمنا ولبنا .

أجل . من ارتضاه الله للهدى . وأنار قلبه . يرتضى هذا القول من الشعرانى ويفسره تفسيراً روحياً . أليس كل شىء نأكله أصلا من التراب ؟

ثم يعطف الشعرانى على ثمرة هذه المجاهدات فى خلقه وحياته. فيقول . «أنه بلغ مقاما فى الزهد حتى لو أمطرت السماء ذهباً وصار الناس ينتهبونه . لم يجد داعيا إلى أخذ شىء منه إلا لأمر مشروع . ولو مر على تلال الذهب والفضة من غير مزاحم عليها من أبناء الدنيا . ولا حساب عليها فى العقبى لم يتناول منها ديناراً واحداً إلا لضرورة شرعية . فقد فنى اختياره مع الله . وفقدت أعضاؤه الشهوة للمعصية أو الجاه . ثم حضوره دائما بقلبه مع الله . أو كما يقول «ثم حضورى مع الله حال أكلى ومشربى كأنى فى الصلاة» .

وبلغ مقاما فى الخلق من ضفافه شفقته على جميع المسلمين شفقته قلبية حتى ليتألم كما يتألم أخوه المؤمن ، ويحس بشقائه كما يحس به ، ثم صعوده فوق ذلك درجات لتشمل رحمته الدنيا بأسرها ، إذ يقول

«ثم سترى لعورات الناس وعيوبهم حتى العصاة، وذلك لون من الخلق والرحمة لم يعرف لغير المتصوفة

ثم تصدره للدعوة والارشاد وإعلاء كلمة الله . حتى إنه ليقف فى وجه كبار العصاة والولاة هاتفا بكلمة الحق ودعوته . لأن روحه وقلبه عند الله لا عند الناس ، ولأنه جعل أخلاقه ، مقاصد لا وسائل .

ثم ماذا ؟ ثم كما يقول «غيرتى على أذنى أن تسمع زوراً ، وعلى عينى أن تنظر محرما وعلى لسانى أن يتكلم باطلا»

ذلك بعض ما أخذ الشعرانى به نفسه من تعبد وخلق ، قبل تصوفه ، أو قبل أن يسلك الطريق إلى الله على أيدى شيوخه

شيوخه فى الطريق

يقول شيخ المتصوفة القشيرى. فى ترجمة أبى على الثقفى «لو أن رجلا جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس كلهم، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة، من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح ومن لم يأخذ أدبه من أستاذ يريه ويريه عيوب أعماله ورعونات نفسه لا يجل الاقتداء به فى تصحيح المعاملات».

ويقول الشعرانى «... ولو أن طريق القوم يوصل إليها بالفهم لما احتاج مثل الغزالى، وعز الدين بن عبدالسلام، إلى شيخ، مع أنهما كانا يقولان قبل دخولها الطريق، من قال: ان ثم طريقا للعلم غير ما بأيدينا فقد افترى على الله كذبا، فلما دخلا الطريق كانا يقولان، قد ضيعنا عمرنا بالبطالة والحجاب».

والمتصوفة جميعا قد أجمعوا على أن السالك لطريق الله لا بد له من شيخ مرشد، ليكشف له الصحيح من الزائف فى الالهامات والواردات، وليعلمه الأدب وطرائق التحلى به، وليفصل له فى خواطر قلبه، وليعصمه من الزلل وليداوى أمراضه النفسية. من الكبر والرياء وحب الدنيا. والحسد والغل والنفاق، وأمثالها

فالتصوف الهامات. تبدأ بعد نهايات أهل الفكر والدرس، وقوامه معان واستنباطات. وفهم فى أسرار القرآن. فلا بد لرائده من مصباح وهاد والشيخ هو المصباح الهادى

والتصوف آداب وتزكية نفوس، وتطهير أخلاق، ومجاهدات وتصحيح معاملات، والشيخ هنا يثبت ويرشد. ويلهم ويفصل الآيات

ثم يقول الشعرانى. ردا على من يقول بأن السلف الصالح لم يعرف هذا اللون من التربية. وهذا اللون الممثل فى الشيخ والمريد

«وقد كان السلف الصالح لصفاء نفوسهم وقلوبهم. لا يحتاجون فى طريق العمل بعلمهم إلى شيخ لعدم الموانع. وصار الناس اليوم لهم موانع لا تحصى

لذلك وجب اتخاذ شيخ يرشد إلى طريق إزالة هذه الموانع . من باب ما لا يتم الواجب إلا به ، فهو واجب، فإن اشتغل المريد بعد ذلك بالعلم ، أو صلى أو صام ، أو تورع أو زهد ، كان محفوظا من الرعونات التى تجرح مقام الاخلاص أو تحبط العمل

وحقيقة الصوفى هو عالم عمل بعلمه . على وفق ما أمر الله به . وكانت صور مجاهداتى لنفسى من غير شيخ . انى كنت أطالع كتب القوم كرسالة القشيرى . وعوارف المعارف . والقوت لأبى طالب المكى . والأحياء للغزالى ونحو ذلك . وأعمل كالذى يدخل دربا لا يدرى هل ينفذ أم لا ؟ فإن رآه نافذا خرج منه . وإلا رجع من التعب . فهذا مثال من لا شيخ له فإن فائدة الشيخ إنما هى اختصار الطريق للمريد . ومن سلك من غير شيخ تاه . وقطع عمره ولم يصل إلى مقصوده لأن مثال الشيخ . مثال دليل الحجاج إلى مكة فى الليالى المظلمة »

ثم يقول « والشيخ فى الطريق ضرورة لازمة . بالغ ما بلغ علم المريد . ولو حفظ آلاف الكتب . فهو فى هذه الحالة كمن يحفظ كتابا فى الطب ولا يعرف عمليا منازل الدواء على الداء . فاذا سمعه سامع وهو يدرس الكتاب قال إنه طبيب عظيم . فاذا رآه حين يسئل عن اسم المرض وكيفية إزالته علم حينئذ مقدار جهله »

ويشترط فى الشيخ كما يقول الشعرانى فوق تعبده ووصوله . أن يكون متبحرا فى علوم الشريعة على اختلاف أنواعها عارفا بالأصول ومذاهب الأئمة الأربعة وغيرها . بحيث يعرف أدلتها ومنازع أقوالها . محيطا بأم الكتاب التى يتفرع منها كل قول »

ولما جاء ميقات الشعرانى ليسلك الطريق إلى باريه وهاديه . سلوكا كما اشترط المتصوفة . وكما رسمه العابدون الواصلون الأولون . أشار عليه واحد البهلول « صفيه ونجية . بأنه وإن كان قاب قوسين أو أدنى من النور الربانى والفتح الإلهى . إلا أن القمم العالية لا يعبدها إلا الشيخ السالك المدرب الموهوب المأذون له .

واستقر كلام صفيه ونجيه فى قلبه . فلما آب إلى منزله . وانتهى من أوراده وتسبيحاته لم يجد قلبه خالصا . بل وجد كلام صفيه ونجيه أحمد البهلول . يراوده ويأخذ عليه مجامع قلبه . وخواطر نفسه . حتى إذا أسلمه الجهد إلى سنة من النوم . إذ بطيف تتلألأ أجنحته . ويفوح طيبه وعطره . يهمس له فى منامه بالإشارة والبشارة .

وإذا بالبشارة والاشارة تتحولان إلى كلام حلو جميل . لازم قلب الشعرانى طوال حياته

« إن أردت حياة قلبك الحياة التى لا موت بعدها . فاخرج عن الركون إلى الخلق . ومت عن هواك وإرادتك . فهناك يحييك الله عز وجل حياة لا موت بعدها . ويغنيك غنى لا فقر بعده ويعطيك عطاء لا منع بعده . ويريحك راحة لا تعب بعدها . ويعلمك علما لا جهل بعده . ويطهرك طهارة لا تدنيس بعدها . ويرفع قدرك فى قلوب عباده . فلا تحقر بعدها .

قد ذهبت أيام المحن وجاءت أيام المنن . . . »

واستيقظ الشعرانى عامر القلب بالأمانى ، فانطلق إلى شيوخ الطريق وهم بعض أصدقائه وبعض شيوخه ، ولنترك الشعرانى يحدثنا بحديثه القلبى عن انتقاله من مقامات العلم والزهد إلى مقامات الفتح والصفاء

« . . ولقد اجتمعت بخلائق لا تحصى من أهل الطريق ، ألتمس لديهم المفاتيح والأبواب فلم يكن لى وديعة عند أحد منهم سوى ثلاثة . على المرصفى ومحمد الشناوى وعلى الخواص ، رضى الله عنهم

فسلكت على يد الأولين شيئا يسيرا ، وكان فطامى على يده على الخواص أعنى الفطام اليسير المعهود بين القوم ، وإلا فالحق ، أنه لا فطام حتى يموت الإنسان .

ومنهم عرفت يقينا أنه لا بد من شيخ فى الطريق ، كما قال موسى للخضر « هل اتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا » .

وقد اعترف الامام احمد بن حنبل لأبي حمزه البغدادى بالفضل عليه . كما اعترف الامام ابن سريج لأبي القاسم الجنيد

وكان الغزالى يقول بعد اجتماعه بشيخه . ضيعنا عمرنا بالبطالة ، وهو حجة الاسلام ، وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وهو من هو ، يقول ما عرفت الإسلام الكامل. إلا بعد اجتماعى على الشيخ أبي الحسن الشاذلى .

ولما اجتمعت بأهل الطريق.قالوا لى. اجعل أعمالك كلها مقاصد ، لتحضر فيها مع الله تعالى ، ولا تتخذها وسائل ، فتموت ولا تصل إلى مقصودك . فقربوا علىّ الطريق . . . »

الشعرانى والخواص

الخواص رجل من رجال الله . وعلم من الأعلام الهـــداه ، ومحجة ومنارة من المنارات التى يهبها الله لعباده . لتكون للسالكين إليه ، نورا وسلبا .

ولكل رجل من رجال الله مقام . ولكل رجل من رجال الله رسالة فى الحياة . فمنهم من رسالته فى التربية والتوجيه. القلم والبيان ، ومنهم من رسالته الكرامات وخوارق العادات ، للتثبيت واليقين ، ومنهم من رسالته تربية المريدين ، ومن رسالته تربية العارفين .

والمربين للعارفين هم الكمل السادة ، ومنهم من يظهره الله . ومنهم من يحجبه ، ومنهم بين هؤلاء وهؤلاء .

فالخواص فى الطريق ، وعند أهله . كامل من السادة ، وإن جهله الناس وإن انكره العوام العوام رغم علمهم ، ورغم مابأيديهم من أقلام وكتب .

الخواص كامل من السادة ، وحجته على مكانته عند أهل الطريق معروفة واضحة . وحجته عند غيرهم أنه صنع العارف بالله . عبد الوهاب الشعرانى

لقد صنع الخواص عبد الوهاب الصوفى ، وعبد الوهاب خلد بتصوفه أى الجانب الذى تولاه الخواص ، وحسب الخواص هذا عند من لايعرفه

ولقد عاش الشعرانى طوال حياته الصوفية ، وعاما من أوعية الخواص فالخواص إمامه وهاديه . وأستاذه وملقنه ومربيه

والخواص هو معراج الشعرانى وسلمه الذى صعد عليه إلى أبواب الفتح وسموات المنح ومناطق الالهام والنور . وليس فى هذا ما ينقص الشعرانى ، بل فى هذا مفخرته . لأن به كان خلوده

وصلة الخواص بالشعرانى هى آية الآيات على مقام الشيخ فى الطريق ، وهى آية كونية على مقام العلم الدنى ، فلقد كان الخواص أميا وكان الشعرانى

عالما ، ذلك هو حكم الظاهر أما حكم الباطن . فلقد كان الخواص عالما وكان الشعرانى أميا .

علم الأول كان الوهب . وعلم الثانى كان الكتب . والعلم الحقيق عند الصوفية . العلم الذى يقول صاحبه بملء فيه أنه علمى . هو علوم الفتح لأنها خاصة بصاحبها . أما علوم الكسب . فهى ليست علوم صاحبها إنما هى علوم الكتب . أو كما يقول الخواص « علوم الرجل حقيقة ، هو ما لم يسبق إليه وأما من كان علمه مستفادا من النقل.فليس ذلك له بعلم . إنما هو صاحب لصاحب العلم » .

والشعرانى يقول . أن من من الله عليه . أن كان وصوله وفتحه على يد أمى لا يعرف القراءة والكتابة . ويقول فى وصف هذا الأمى

« رجل غلب عليه الخفاء . فلا يكاد يعرفه بالولاية والعلم . إلا العلماء العاملون . لأنه رجل كامل عندنا بلا شك . والكامل إذا بلغ مقام الكمال فى العرفان صار غريبا فى الأكوان » .

ولنترك الشعرانى يحدثنا بحديثه الروحى العذب عن وصوله إلى معارج المعارف العلوية على يدى شيخه . ثم يحدثنا عن بحار علوم شيخه ومرشده .

« وكانت مجاهداتى على يدى سيدى على الخواص : كثيرة متنوعة ، منها أنه أمرنى أول اجتماعى عليه. ببيع جميع كتبى والتصدق بثمنها على الفقراء ففعلت وكانت كتبها نفيسه مما يساوى عادة ثمنا كثيرا فبعتها وتصدقت بثمنها ، فصار عندى التفات إليها . لكثرة تعبى فيها وكتابة الحواشى والتعليقات عليها . حتى صرت كأنى سلبت العلم ، فقال لى : اعمل على قطع التفاتك إليها بكثرة ذكر الله عز وجل ، فإنهم قالوا : ملتفت لا يصل . فعملت على قطع الالتفات إليها مدة حتى خلصت بحمد الله من ذلك

وعلوم الوهب منزهة عن مثل ذلك فنسلتها، وأمرنى بالعمل على تصفية القلب من شوائب الفكر، وقال بينك وبين علم الوهب الخالص ألف مقام ،فصرت أعرض عليه كل شيء فتح به على وهو يقول أعرض عن هذا ، واطلب ما فوقه ،إلى أن كان ما كان . فهذا صورة فتحى بهذه المجاهدة،على يدى شيخى فالحمد لله رب العالمين ».

ثم يصور لنا الشعرانى بعد ذلك فيما يصور،من صلاته بالخواص، بحر العلم الخاص بشيخه فيصفه، بأنه مبسوط الرحاب عميق القاع ، أمواجه الكشف الصحيح ، وعبابه التعريف الإلهى .

ولقد غطس الشعرانى كما يقول فى بحر شيخه خمس مرات — ومن حق المريد أن يغترف من بحر المعرفة الخاص بشيخه — فلما هم بالسادسة استحال البحر حجرا .

وقد وجد الشعرانى فى كل مرة غاص فيها صيداً ثميناً ، صيدا هو خزانة من خزائن العلم اللدنى .

فنى المرة الأولى وجد خزانة على بابها قفل ، ففتحها بقول « لا إله إلا الله » فوجد فيها عجبا ، وجد العلوم التى برزت من اللوح المحفوظ إلى هذا العالم على اختلاف طبقاته ،من الصديقة الكبرى إلى آخر درجات الولاية .

وتلك الخزانة تشتمل على علوم لا تحصى ولا تدرك إلا بتعريف من الله عز وجل ، ووجد الشعرانى علوم تلك الخزانة مرتبة منسقة. وعلى كل علم اسمه

ولقد أخرج الشعرانى كما يقول جميع تلك العلوم من الخزانة وجعلها من جملة ذخائره ومعارفه وأضافها إلى ما عنده .

فلما غطس فى المرة الثانية ، وجد خزانة أخرى على بابها قفلان. ففتحها باسم « الله » فوجد فيها جملة من آيات القرآن العظيم من أول سورة الحاقة إلى آخر القرآن ، ووجد تفسير كل آية من تلك الآيات مكتوبا. وهو علم لا تدركه العقول . ولا يستفاد من كتب .

الشعرانى فى مدرسة خوند

استقر الشعرانى بمدرسة أم خوند . بعيداً عن مسجد الغمرى المشحون بالدسائس والحسد . وزالت أيام المحن جميعها . وأقبلت أيام المنن جميعها . كما يقول الشعرانى .

وفى مدرسة أم خوند . دخل الشعرانى دوراً جديداً من أدوار حياته الكبرى . وابتدأت الخطوط العريضـــة لمجده العريض . ترتسم وتتحدد . وتأخذ ألوانها وتتجه إلى أهدافها .

ففى تلك المدرسة تصوف الشعرانى . وسلك الطريق إلى الله . وفيها كانت مجالسه العلمية والتعبدية . التى غدت قبلة لصفوة العباد والعلماء ،يلوذون بالشعرانى الامام العابد العالم ، ينهلون من علمه ، ويغترفون من فيضه . ويلتمسون النور فى هديه وكلمه .

كما غـــدت تلك المجالس أيضا ، مهوى أفئدة الكبراء والأمراء واصحاب الوجاهة ، يلتمسون لدى صاحبها شفاعة فى أمور دنياهم . أو توددا للجماهير وزلفى لديهم ، فقد أصبح الشعرانى زعيا شعبيا مرهوب الجانب ، كما غدا صاحب صوت وكلمة عالية فى مصر ، ومطاعة فى استانبول ، عاصمة الاسلام ومقر الخلافة التى تدين لها مصر بالتبعية والولاء .

ولا يخلو الأمر أيضا من التماس بركات هذا القطب . القطب الذى بزغ نجمه وتلألأ وأخذت الدنيا تمتلىء وتفيض بالأحاديث الساحرة عن نفحاته وعجائبه

الشعرانى والخليفة

وجاء السلطان سليم خليفة العالم الاسلامى إلى مصر زائرا ، فكان يومه عيدا ، وكانت أيامه بمصر تاريخا ، وكان القرب منه أو التشرف برؤيته عزا وجاها ومطلبا عاليا .

وحف به الأمراء ، ولاذ به الكبراء . وهرع إليه العلماء والفقهاء ، يأملون فى القبول ويرفعون آيات الولاء .

وبقى رجل واحد ، لا يسعى إلى أمير المؤمنين . ولا يمشى فى الركاب ولا يحنى رأسه . تلك الانحناءات الذليلة التى عرفت فى المراسيم التركية

وارتفع همس إلى السلطان سليم بتخلفه . وتضخم الهمس فغدا دويا . فاسم الشعرانى يزاحم الشمس ، فلا يمكن أن يختفى . ولا يمكن أن يتوارى . ولا يمكن ألا يلمس الزائر العظيم تخلفه

وحدثت الكرامة ، أو حدثت الآية التى طالما أكرم الله بها رجاله وعباده الذين عفوا عن الدنيا ، فسعت إليهم الدنيا

أجل لقد سعت الدنيا ، سعت الخلافة التركية بجلالها وبهائها إلى الرجل العابد القانت المتواضع المعرض عن الدنيا وأساليب الحياة

سعى الخليفة العظيم ، إلى الصوفى العظيم ، فكان ما بينهما رمزا إلى الدنيا والآخرة ، وبين دهشة الحاشية وعجب الأمراء وذهول العلماء والفقهاء التمس السلطان سليم طريقه إلى الشعرانى

وكان يوما عظيما تاريخيا للرجلين الكبيرين ، ومن هذا اليوم لم يستطع حاكم فى القاهرة ، أن يعصى للشعرانى أمرا أو يرد له طلبا

وكان القضاء فى مصر خلال تلك الحقبة من التاريخ . للقاضى محيى الدين عبد القادر الأزبكى ، وكان فى طبعه حدة فاصطدم بنائب السلطان سليم على مصر فاهدر النائب دمه وخصص جائزة لقتله .

واختفى القاضى طويلا حتى إذا ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وضاقت به حياته انطلق إلى الشعرانى شاكيا لائذا. وتعهد للشعرانى أن يقيم مسجدا لله . إن أنقذه الله من شر خصمه ونجاه من تلك المحنة

وابتسم الشعرانى وتناول عودا رفيعا من الأرض . وقال له اذهب فالق الحاكم بهذا العود . ولا تخشى سوءا ولا شرا

فتردد القاضى وأذهله هذا الأمر ، فقد تشفع له الأمراء والسادة فلم تقبل شفاعتهم فكيف يستجيب الحاكم بعد ذلك ، ولا شفاعة اليوم ، ولا وساطة . إلا عود صغير من الشيخ

ولاحظ أتباع الشيخ تردده فثار ثائرهم، وهتفوا به اذهب وسترى عجبا فالشيخ لا يمزح وإن بدا الأمر شاذا غريبا. وأسرار الشيخ ونفحاته لا تنكر ولا تجحد ، ومضى القاضى على وجل للقاء الحاكم حتى إذا دنا من مجلسه ألقى العود أمامه . وبين عجبه ودهشته ، خف الباشا لاستقباله والاحتفاء به ، وأعاده إلى منصبه وأصدر أمرا بالعفو عنه

تلك رواية كتب المناقب، وفى رواية أخرى أن الشعرانى التمس من السلطان سليم العفو عن القاضى المهدر الدم . فأجابه إلى طلبه وقبل شفاعته

وسواء كانت الرواية الأولى أو الثانية ، فقد غدا القاضى يدين بحياته للشعرانى، ويدين أيضا ببناء مسجد لله يخصص للشعرانى ولمجالسه العلمية والتعبدية

وابتاع القاضى أرض فضاء فى أطراف حى باب الشعرية ، ليقيم فيها المسجد الذى وعد به وقبل أن يبدأ القاضى فى البناء عدا أحد الأمراء الأتراك على الأرض فاغتصبها واعتزم أن يقيم عليها بيتا له

وتصدى للأمير التركى رجل من أصحاب الأحوال . فأنذره بسوء العاقبة إن لم يترك هذه الأرض التى قدر لها أن تكون مسجدا لله. ومقرا للشعرانى حيا وميتا

وضحك الأمير التركى ، وأعلن لحاشيته وسط السخرية اللاذعة ، أنه لا يؤمن بالمجاذيب ولا يعتقد فى الكرامات . وأن الاهتمام بمثل هذه الأمور صغار لا يليق بالسادة الأمراء

ومضى ركب الحياة . فإذا بالشلل يأخذ جسد الأمير بعد أيام . ثم يسلمه للموت . ولم يمض أسبوع واحد على هذا العدوان

وأسرع القاضى محى الدين إلى الأرض . فشاد عليها مسجدا عظيما فخما واسع الرحاب . هو المسجد الذى عرف فى التاريخ باسم مسجد الشعرانى وابتنى فى المسجد زاوية انتقل إليها الشعرانى بأهله . بعد أن جعلها القاضى وقفا عليه وعلى أسرته . وغدت الزاوية بعد ذلك جزءا من تاريخ الشعرانى لأن بها كانت أعظم أيامه . ولأنها غدت من أعظم مراكز العلم والتعبد فى العالم الاسلامى

وحفر البناؤون كثيرا من الآبار لهذه الزاوية ولكنهم لم يعثروا على الماء . فطلب الشعرانى من شيخه « نور الدين الشونى » حلا لهذا الأمر . والشونى يتحدث عنه الرواة بأنه . كان يجتمع برسول الله صلوات الله عليه يقظة ومناما

وبعد أيام جاء نور الدين الشونى ليقول للشعرانى . بأن البئر يجب أن تحفر فى مكان حدده وعينه . وقال إن هذا بناء عن اذن من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه

وحفرت البئر . فكان ماؤها سلسبيلا عذبا ، حتى لقد تطايرت الشائعات بأن ماءها يتصل ببئر زمزم وأقبلت الجماهير عليها التماسا لبركات مائها وأسراره

زاوية الشعرانى

لعبت الزوايا والمساجد فى تاريخ الإسلام دوراً كبيراً خطيراً ، فقد كان المسجد مكتبة ومدرسة ومصلى ، كان معهداً لتربية العقول ، ومعبداً لتطهير القلوب ، بل لقد كان مسجد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى المدينة ، كلية حربية يتعلم فيها الصحابة تحت رعاية نديهم القتال ، من ضرب الرماح إلى رشق السهام .

والذين تربوا تحت ظلال المساجد فى تاريخ الاسلام ، هم علماؤه ، وفقهاؤه ، بل وفرسانه ومقاتليه أيضا .

ولقد خطا أحمد بن طولون خطوة أخرى فى واجبات المساجد ، فألحق بمسجده الكبير صيدلية تداوى المرضى ، وتوزع الدواء بالمجان على الفقراء والمحتاجين ، وبذلك غدت المساجد محور القوى الروحية والفكرية والبدنية فى العالم الاسلامى ، وهل ينسى تاريخ الاسلام ، بل تاريخ الحضارة العالمية الأعمال الخالدة ، التى حققتها المدارس ، الكاملية ، والنظامية ، والطولونية والأزهر .

فمن تلك المساجد ، شعت أنوار المعرفة ، التى حملت للعالم أزكى الحضارات وأطهر الدراسات . أنوار المعرفة التى صاغت العقول الاسلامية وأضاءت لها الحياة أكثر من عشرة قرون ، ومكنت للقوة الاسلامية فى الأرض حتى كانت ، وحدها صاحبة القول الفصل فى شئون الكوكب الأرضى .

وزاوية الشعرانى ، كانت فى القرن العاشر الهجرى منافسا خطيرا للأزهر بل لقد كانت الناحية التعبدية فيها ، أكبر مما يطيق الأزهر ، وكانت سبل العيش لطلابها أيسر وأهنأ ، وزاوية الشعرانى جزء لا يتجزأ من تاريخه . بل إن تاريخه ليفقد جانبا مضيئا ساحرا لو أهملنا الحديث عنها .

والحديث عن زاوية الشعرانى ، يترقرق ويتشعب لمن يريد أن يحيط

بألوانها وصورها ، بل هو حديث فى حاجة إلى كتاب خاص ، ودراسة مستقلة ، فلقد نهضت تلك الزاوية بما يساوى جهد وزارتين من الوزارات التى نعرفها . أعنى وزارتى الشئون والمعارف .

ونحن هنا نحاول أن نعطى صورة سريعة لحياة الشعرانى داخل زاويته، وصورة سريعة. لأثرها فى المجتمع المصرى .

حول الشعرانى الزاوية التى بناها له القاضى محيى الدين ، إلى رباط للعباد ومدرسة للعلم والتعليم. وزاوية للصوفيين المستجدين، ومسجد للصلاة وإقامة الشعائر ،وتكية للفقراء ،والمحتاجين وكان هو قطب الرحى لتلك الحركة الدائبة.

ولقد أوقف عليها القاضى محيى الدين أرقافا وأرزاقا ، كفلت الحياة لموظفيها من المؤذنين والفقراء . والأئمة والخطباء .

ولكن الحياة قد اتسعت داخل الزاوية.فقد كفل إسم الشعرانى لزاويته مكانة عالية فأقبل عليها الراغبون من كل حدب ينسلون .

أقبل عليها الأمراء والسادة .يوقفون عليها أملاكهم وأموالهم، ويقدمون إلى طلابها المنح والهدايا ، على اختلاف أنواعها .

وأقبل عليها آلاف المريدين والطالبين للعلم. من الفقراء الذين اعسروا فلم يستطيعوا طلبا للعلم ، بل لم يستطيعوا الحياة الكريمة،فكفل لهم الشعرانى داخل زاويته العلم ، العلم بشقيه من تثقيف وتعبد، كما كفل لهم الحياة الكريمة بأوسع معانى تلك الكلمة .

حتى لقد أفسح للمتزوجين منهم مكانا فى زاويته. يقيمون فيه مع أولادهم وزوجاتهم طاعمين كاسين منعمين، لا يحملون من هموم الرزق كثيرا ولا قليلا، ماداموا قد انقطعوا للعلم . ومادامت أخلاقهم وعباداتهم مما يرضى عنه الله ، ولقد بلغ عدد طلاب الزاوية فى أول أمرها مائتين بينهم تسعة وعشرون كفيفا.

ويحدثنا التاريخ حديثا عجبا عن ميزانية تلك الزاوية ، وعن الخيرات

والنعم التي تجرى في ساحاتها فلقد كان يعد لطلابها . من الخبز كل صباح أردبا وثلث الأردب من أنقى أنواع القمح .

أما ميزانيتها عن عام ، فعشرة قناطير من عسل النحل ، وعشرين قنطاراً من عسل القصب ، وأربعين أردباً من الفول ومن الكشك سبعة ، ومن الأرز مثلها ، ومن البسلة والعدس خمسة وعشرين أردباً . . . وهكذا .

فإذا أقبل العيد ، عيد الفطر ، كانت ميزانيتها من الكعك خمسة أرادب غير الهدايا ، ومن الجوز والبندق والخروب والتمر والزبيب والتين ماقدر بخمسة قناطير ، ومن الفواكه شيء لايقع تحت حصر . ويكفي أن نذكر أن ميزانية الزاوية من البطيخ في العام كانت أكثر من ألفين .

ولم يقتصر الأمر على هذا النعيم فقط ، بل شملت رعاية الشعراني مريديه وتلامذته في أوسع الآفاق، فهم أبناؤه وأحبابه في الله ومن حقهم عليه أن يدبر أمورهم كافة ، ومن تدبير أمرهم أن ينظر في أمر استكمال دينهم ، ومن كمال الدين الزواج ، ولهذا زوج الشعراني في زاويته أربعين رجلا من مريديه قام عنهم بالمهر ونفقات الزواج ، وحرص على تزويد زوجاتهم بكل شيء يخطر على العقل من شئون النساء ولوازمهن، حتى اللبان الشامي والحجازي والشمع والخضاب وغرائب أنواع الزينة وألوان العطور . وأدوات التطرية والتجميل

ومن كمال الدين الحج إلى بيت الله ، ولهذا أرسل الشعراني أفواجا من تلامذته إلى الأرض المقدسة باذلا في سبيل راحتهم والعناية بأمرهم مثل مابذل في أمر زواجهم ، من الاهتمام العجيب بكل دقيقة وصغيرة ، بما يدل على شفافية ذلك الروح الكبير ، الذي شمل حبه وحنانه كل من أحاط به . أو لاذ برحابه

ولم تقف مكارم الشعراني عند هذا الحد ، بل تحدثنا كتب المناقب بأنه كان يقوم بتزويد العلماء والفقهاء والمشايخ في مصر وغيرها بالغذاء والكساء والماء ، حتى لكأن كل فقير من أهل العلم أمانة في عنقه ، ويحدثنا الشعراني

بأنه قد كسا بالثياب عدداً لايحصيه عد ولايحيط به حصر من الشيوخ الفقراء آلافا مؤلفة .

أما ضيوف الشعراني ورواده في زاويته ، والذين قدروا في كتب التاريخ بحوالي مائة زائر يوميا فقد كان الشيخ معهم سخي اليد سخي القلب سخي العاطفة .

ومع هذا العبء العظيم ، وهذه النفقات الطائلة التي حملها الشعراني ، لم يغض نبع الخيرات في زاويته ، بل كان دفاقا جياشاً دائما . وفي وسط هذا النعيم والخير المقيم ، كان الشعراني يعيش يومه على جرعة من ماء وتمرات يقمن صلبه .

تلك هي الناحية المادية من زاوية الشعراني ، أما الحياة الروحية فيها ، فهو الوجه الأكثر وضاءة وأشراقا ، فلقد تحدث مؤرخوه من معاصريه بأن زاويته كانت أعظم المنارات العلمية والتعبدية في العالم الاسلامي خلال القرن العاشر الهجري .

فلقد كان الشعراني أوسع أهل عصره علما،وأعلام كعبا في التصوف والنفحات اللدنية . كما كان ذروة في التعبد والخلق لاتطاولها ذروة ، وبتلك المملاقية العلمية والروحانية التعبدية . طبع الشعراني زاويته وربى مريديه وتلامذته،فدرسوا على يديه العلوم الشرعية على اختلاف أنواعها .وتلقوا منه المعارف الصوفية على اتساع آفاقها وشمولها ودقائق أسرارها ومكارم أخلاقها.

وكان قراء القرآن الكريم فيها ، يواصلون القراءة ليلا ونهارا . حتى لاتخلو الزاوية دقيقة واحدة من قراءة القرآن .

وبجوار قراءة القرآن،المجالس العلمية ، فلايفرغ قارىء في الحديث، حتى يبدأ قارىء في التفسير ، وما ينتهي حتى يشرع ثالث في قراءةالتصوف ولا ينتهي حتى يليه قارىء في الفقه . وهكذا آناء الليل وأطراف النهار من غير انقطاع .

ويحدثنا المناوى وصاحب طبقات الشاذلية . بان الناس كانوا يسمعون لزاويته دويا كدوى النحل ليلا ونهارا

وبجوار هؤلاء وهؤلاء ، كان العباد والذاكرون المنقطعون للذكر والعبادة حتى ليقول الشبلى المؤرخ. بانه لم ير فى مشارق الأرض ومغاربها خيرا من زاوية الشعرانى ، علما وفضلا وتصوفا وأدبا

ولقد أخرجت تلك الزاوية الخالدة أعظم علماء القرن العاشر الهجرى وأكبر متصوفيه . لقد كانت زاوية خالدة ، وكانت زاوية للخالدين

إلى الملأ الأعلى

حدثنا الشعرانى عن سلوكه إلى الله على يد شيخه الخواص . وكيف أجلسه الخواص فى محاريب الطهارة والتعبد ،وأخذ عليه العهد ولقنه الذكر . واعطاه الورد واخلاه عما سوى الله وانبأه بأن الفتح الإلهى والهبـات الربانية اللدنية ستكون بدايتها فى مكان معلوم مقدر، بروضة المقياس على شاطىء النيل .

ثم حدثنا عن أحاسيسه القلبية فى أيام ترقبه وانتظاره ،وكيف تسللت العلوم الوهبية إلى قلبه فكتب منها ما شاء الله أن يكتب ، ثم عرضها على شيخه فأنبأه بأنها لا تخلو من علوم ظاهرية ، وطلب إليه محوها ، وانتظار علوم أكثر صفاء وثباتا .

وتكرر الأمر بينه وبين شيخه ، حتى جاء الفتح الإلهى ، وكانت بدايته أن الهم علم آداب العبودية فى يوم الاثنين السابع عشر من شهر رجب سنة أحدى وثلاثين وتسعمائة للهجرة .

فلما عرض ما وهبه الله له فى هذا اليوم على شيخه ،قال له . « تم أمرك وعلا شأنك ، وروى قلبك،فابق على ما تكتب » فسجل الشعرانى فتوحاته الأولى فى كتابه « الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية »

وتوالت المنح والفتوحات على الشعرانى ، فقد تم أمره وعلا قدره وروى قلبه ، وآن له أن يهب الفكر الاسلامى شيئاً مما منحه الله فانطلق ينثر علومه فى مجالسه العلمية ، ويجعل من زوايته منارة عالمية . ومحفلا من محافل العلم الكبرى ، ومنهلا عذبا سلسبيلا للأمة المحمدية .

ثم أقبل الشعرانى على التحرير والتأليف ، فى شتى فروع المعرفة حتى وهب المكتبة الاسلامية أكثر من مائة كتاب فى التصوف والفقه والأصول والتفسير والحديث والنحو والطب والكيمياء والاخلاق وغيرها من ألوان

العلوم والمعارف ، وقد استغرق بعضها خمسة مجلدات ، ووقع الكثير منها فى مجلدين وأكثر هذه المؤلفات لايزال مخطوطا وموزعا على دور الكتب فى أرجاء العالم .

ولقد أحصى المستشرق « بروكلمان ، أكثر من ستين كتابا مخطوطا متناثرة فى دور العلم العالمية ، ويذكر لنا على مبارك باشا ، بأن الكتب التى رآها للشعرانى أكثر من سبعين كتابا .

وبلغ الشعرانى فى عصره مكانة علمية . حسبنا فى الدلالة عليها أن أحد شانئيه كتب سؤالا عن فقرات وردت فى كتاب « العهود المحمدية » للشعرانى وقدمه إلى شيخ الإسلام الفتوحى الحنبلى . فامتنع الشيخ الفتوحى عن التعليق عليه . قائلا « إن الشعرانى قد أحاط من العلم بما لم نحط به . وقد قرأ من الكتب مالا يعرف له اسما ، وأنه لو أدعى تأليفها ما وجد فى مصر منازعا »

تلك لمحة عن مكانة الشعرانى الذى قال له شيخه الأكبر على الخواص « تم أمرك وعلا شأنك ، وروى قلبك »

وكان من تمام الأمر للشعرانى ، أو من تمام المقابلة فى حياته . أن مكانته العلمية . مشت جنبا إلى جنب مع مكانته الدنيوية .

فقد أصبحت زاويته تسهم بنفوذها فى توجيهات الحكم فى مصر . بل وفى الامبراطورية التركية بأسرها .

وبلغ من اعتزاز الشعرانى بمكانته الدينية . أن يأتى إليه الوزير الأعظم على باشا قبيل سفره إلى تركيا . ليقول له « نحن مقربون للخليفة فهل لك من حاجة نرفعها إليه » فيهتف الشعرانى غاضبا « ألك حاجة عند الله ، أننا مقربون إلى حضرته »

ونرى حاكما من حكام مصر . هو الأمير حسن بك صنجق يتتلمذ على الشعرانى ثم يقبل على حبه ويقبل على درسه . حتى يلازمه فى زاويته ليلا ونهارا تاركا الأمارة والحكم .

ولكن الشعرانى لا يرضى عن تلك الصحبة . لأن فيها إستخفافا بصالح الرعية وهى أمانة فى عنق الأمير . وواجبه الأول أن يتخصص لها . ويتفرغ لشئونها .

ولكن حب الأمير لشيخه الشعرانى . كان أكبر من حبه للأمارة وجاهها . والحكم وسلطانه ونفوذه . فعز عليه وكبر لديه . أن يفارق الشعرانى ومجالسه وما فيها من انس وعلم وتقوى . فاعتزم أمرا عجبا . سره الأكبر يلتمس لدى التصوف والمحبة فى الله .

وفى اليوم التالى تجلى هذا الأمر . فنع الشمس فرق الأمير أمواله . وأعتق عبيده . وأوقف أملاكه على وجوه الخير . واستبق من هذا الثراء العريض رخام بيت من بيوتاته . وكان تحفه نادرة . وقليلا من المال . أما الرخام الفخم النادر والمال القليل . فقد اعتزم الأمير أن يبنى بهما ضريحا ومزارا لشيخه الشعرانى وفاء وحبا .

واقبل الأمير على أستاذه . فقيرا متجردا ليسلك على يديه طريق الهدى واليقين . بلا عائق من حكم ولا مانع من امارة .

وبكى الشعرانى . فها هو رجل يترك من الدنيا شيئا لم يتركه الشعرانى ويزهد زهدا يتضائل حياله كل زهد . ثم طلب من تلميذه أن يتريث قليلا فى بناء الضريح حتى إذا أحس الشعرانى بأن ساعة صعود روحه إلى باريها وهاديها قد دنت طلب من الأمير أن يقيم الضريح الذى اعتزم إقامته .

ولما شيد الضريح وارتفعت منارته . وانتهى البناؤون من آخر قطعة فيه فى نفس اللحظة . انعقد لسان الشعرانى وجمدت أطرافه . فقد استوفى أنفاسه .

وكانت وفاته فى الثانى عشر من جماد الأولى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة للهجرة وكانت آخر كلماته . أنا ذاهب إلى ربى الرحيم الكريم .

رسالة التصوف

الشعراني . والروح الصوفي

تكلمنا عن حياة الشعراني وما اتصل بها من أحداث تاريخية ، ونحاول الآن أن ندرس ما تركه للفكر الاسلامي من علوم ومعارف ، وما تركه للروحانية الاسلامية من جولات صوفية ، ومعارف لدنية ، وما كان لهذا وذاك من أثر في توجيهات الحياة الاسلامية العقلية والعلمية .

والشعراني لسان صدق من السنة التصوف التي أبدعت آياته الكبرى ومنارة من مناراته العظمى . التي قامت على مفترق الطرق الروحية والعقلية ترشد السائرين إلى الله ، وتهدي الحائرين المتعبين إلى شواطئ السلام واليقين

وله بعد ذلك في التصوف رسالة ما أحسب أن أحداً — باستثناء الغزالي حمل أعلامها أو جاهد في سبيلها . مثل ما حمل الشعراني وجاهد .

وتلك الرسالة ، هي تنقية التصوف من الدخيل والدخلاء . وتجليته نهجا إيمانيا تعبديا خالصا لله ، هدفه الطاعة الكاملة ، والعبودية الصادقة والمحبة الروحية بأنوارها وآدابها السامية لا يعرف الجدل ولا الحوار ، ولا يقر الشطح والسبح الفلسفي ،

وربط المعارف الصوفية اللدنية بالعلوم الاسلامية الظاهرية ، والخروج بالأمة الاسلامية من الجدليات والخلافات ، إلى روح الدين وجوهره ، إلى اليقين الثابت ، والعمل الصالح . والوحدة القلبية والفكرية . وإقامة أسس الحياة على الرحمة والمحبة . لا على الشقاق والجدل البغيض .

والشعراني ككل المتصوفة . مفتاح شخصيته في تصوفه وروحانيته . فالشخوص الصوفية . قد يتراءون اشباحا باهتة الظلال للعين . المادية وقد يتراءون في عدسات الباحثين المنطقيين في أردية السذاجة والبساطة حينا . وفي أردية الغموض والابهام أحيانا .

ومرد هذا ارتفاعهم الروحي الهائل عما ألف الناس واعتادوا من ألوان وأخلاق . وعما ألف الناس واعتادوا من معارف نظرية وعقلية ، ولهذا تخطئهم العين المجردة ، كما تخطئهم العدسات المادية

إننا في حاجة إلى عدسات روحية خاصة حينما تتعرض لتلك الأرواح كما نحتاج إلى مكبرات خاصة حينما تتطلع إلى نجوم السماء

فقوة المتصوف العظمى . إنما تكمن في روحه . فكلما اقتربنا من دائرته الروحية تجلت لنا آياته . وتجلت لنا شخصيته وتجلت لنا عملاقيته الروحية والعلمية . لأنهم شخوص كونتهم العقيدة . وصاغتهم الروحانية . ولهذا نقترب من فهمهم ونقترب منهم ، كلما اقتربنا من التصوف ومن فهم التصوف .

واذن فلا بد لدارس شخصية الشعراني من أن يتحدث عن التصوف ، فالحديث عن الروح الصوفي . هو المدخل لدراسة كل متصوف اسلامي .

ودارس التصوف الإسلامي ، يرى نفسه باديء بدء ، وسط أمواج صخابة ، وبحار زاخرات . بل وسط دوامة مفرغة الحلقات ، لايجد لعبابها شاطيء ، ولا من نوئها عاصم .

فقد امتلأ موكب التصوف بالدخلاء من كل نحلة ولون ، كما دست على المعارف الصوفية عقائد تكاد تمثل فيها عقائد الكوكب الأرضي كافة .

وطريق البحث بعد ذلك ليس معبدا بل ليس آمنا . فالباحث يجد امامه مزاجا عجبا من الأخبار المنشابكة المتضاربة التي امتزج فيها الحصى بالجوهر وامتزجا أحيانا حتى يحتاج الدارس إلى معمل فكرى للصهر والتمييز .

وما يجده الباحث من حر الجواهر انما يجده متناثرا لايكون وحدة فكرية ، ولا يقيم مبحثا علميا متناسقا . فهو بحاجة إلى صبر مدده من عند الله ، حتى يستطيع أن يؤلف بين هذه الأجزاء ويرد كل جوهر إلى عقده ، حتى يستقيم البحث ، وحتى يتجلى جمال اللؤلؤ المكنون .

وكثيرا ما يجد الباحث نفسه امام ألوان فلسفية مادية. وألوان من التأملات الجامحة، وألوان من الشطحات المضللة، ادخلت على التصوف، وهى ليست من روحه ولا من عقيدته. وأعسر من هذا وأشد قسوة. أن هذه الألوان قد دسها المغرضون والمزيفون فى كتب الأئمة والقادة من رجال التصوف. ومشى هذا التزييف على التاريخ حتى أصبح جزءاً منه.

وكتب المناقب التى عنيت بالتصوف ورجاله كثيرة ومتنوعة، ولكن كثرتها لا تهدى السبيل ولا تنير الطريق. إذ أنها طوائف من الأخبار تسودها المبالغة حينا. والاضطراب أحيانا، ويجرى فيها الدس والتزييف تارة والابهام والغموض تارة أخرى.

وتأتى بعد ذلك دراسات المستشرقين. الذين ساهموا بقصد أو بغير قصد فى تشويه التصوف وتغيير وجهه. لأنهم اتجهوا بدراساتهم إلى ألوان من التصوف لاتعتبر من صميمه ولا تعبر عن شخصيته، اتجهوا إلى السبحات الفلسفية، والشطحات القلبية، وهو لون دخيل على التصوف لحق به فى احدى مراحله المتأخرة، حينما انتقل من القلوب إلى العقول، ومن التعبد إلى التأمل حينما أصبح التفلسف لا الايمـــان طريقا إلى الله، وطريقا إلى المعرفة. وحينما انصرف بعض المنتسبين إلى التصوف إلى نظريات فى الوجود ونظريات فى المعرفة لا يعترف بهـا الاسلام ولا ترضى عنها الألحان الصوفية المؤمنة.

ثم جاءت فى أعقابهم. كتب المؤرخين المعاصرين من رجالنـا. فاذ بهم يجرون فى أعقاب أساتذتهم من رجال الاستشراق، وإذ بهم يقعون كما وقع أساتذتهم فى أحابيل خصوم التصوف القدامى الذين دسوا عليه وزيفوا ألحانه. وإذ بهم أيضـا يعنون بالشكليات ويغرمون بالشاذ من الآراء. ويولعون بابراز الكلمات المهزوزة. كما أولع الأوربيون بها من قبل. الكلمات المهزوزة التى استنبطوا منها تارة فكرة الحلول والاتحاد. وتارة نظرية وحدة الوجود. وإذ بهم يتحدثون أيضاً كما تحدث شيوخهم عن الصلات

بين التصوف الاسلامي والوثنية الهندية . والتصوف المحمدى والروحانية المسيحية .

ودارت أقلامهم فى هذا المجال وتشعبت بهم السبل . حتى أسلمتهم إلى نظريات وصور . قد تنتسب إلى كل نحلة عرفها العقل الانسانى ماعدا النهج الربانى الاسلامى .

واغفلوا تماما جوهر الاسلام وروحه . وهما أبعد ما يكونان عن هذه الألوان والصور . ولم ينظروا إلى مذاهبه المحمدية . وعقيدته القرآنية واخلاقه المثالية وتعبداته السامية . وتراثه فى المعرفة . وهو أصدق صور الايمان المحمدى . وأعلى ذرى الهدى القرآنى .

فهى إذن محاولة جريئة وشاقة تلك التى نحاولها إذ نحاول تنقية التصوف مما دس عليه والحق به . وتمزيق الحجب التى توارت خلفها أنواره . واختنق فى طياتها بريقه وسناؤه . حتى نجلوه ربانيا اسلاميا خالصا . كما عرفه الأولون الذين عاشوا فى محاريبه ومعابده . وأنواره ومعارجه .

ولقد شهد التاريخ محاولات سابقة فى سبيل هذه الرسالة العليا ، فلقد قام حجة الاسلام الغزالى فى القرن الخامس الهجرى ، بحركته الاصلاحية الكبرى فى سبيل تجديد التصوف وتنقيته من الألوان الفلسفية التى دسها عليه خصوم الاسلام من أصحاب المذاهب الباطنية ، ومن الدجل الشعبي الذى أدخله عليه جهلة العوام وبعض طوائف المتحررين من الأخلاق ، كما قام بهذه الرسالة العظمى بقوة ونجاح القطب الشعرانى فى القرن العاشر الهجرى .

ونحن اليوم فى حاجة ملحة إلى تصفية جديدة ، وتنقية جديدة ، وحركة تجديدية أخرى . نحن فى حاجة إلى جهود متوافرة لدراسة التصوف وتنقيته من الشوائب ، ومما زور التاريخ ، ومما أدخل الرواة ، ومما دس عليه ونسب إليه وحف بروحه وتعلق بأرديته حتى نرده إلى فطرته الأولى فنرده إلى

القلوب إيمانا ، وإلى الأخلاق طهارة ، وإلى المثالية عنوانا ورمزاً ، بل إلى الإنسانية بأسرها سلاما وسعادة وأمنا .

وإن لكبير الأمل ، فى أن تكون تلك الدراسات التى نقدمها هنا ، بداية موفقة لتلك الحركة المباركة . أو على الأقل منارا يرشد إلى طريقها، ويهدى إلى سبلها .

التصوف الإسلامى

والمعارف العالمية

والتصوف الاسلامى هو أعلى قمة حامت حولها المحاولات العالمية للكمال الروحى والمعارف اللدنية حامت حولها الجهود العالمية ، ولا أقول بلغتها ، لأن سبل الكمال الروحى قد تعددت بتعدد الفلسفات وتعدد الوسائل والغايات ، فقد حاول قوم أن يقتبسوا من نور هذا الكمال بالتصفية والتخلية، كرجال الفلسفة الاشراقية ،وحاول قوم أن ينالوه بالنسك والطهارة كزهاد اليوجا الهندية . وحاول آخرون ان يلموه بالاستغراق والتأمل ، كأصحاب المذاهب النظرية والفلسفية .

وعدة هؤلاء وهؤلاء .لبلوغ هذا الكمال ، جهد بشرى وسبل ابتدعوها ومذاهب اعتنقوها وعاشوا لها . وهى وان وصلت بهم إلى ألوان من هذا الكمال . إلا أنها ألوان مستعارة لا أصيلة .لأنها منحرفة الغاية . وان استقامت الوسيلة .

وقد ترقى أرواح هؤلاء وهؤلاء .حتى تأتى بما يشبه الالهام ، وبما يشبه الخوارق والكرامات. إلا أنها قد تضل وتشقى ، لأنها اقتبست هداها من داخلها . ولم تقتبس هداها من خالقها وموجدها .

أما التصوف الاسلامى ، فقد تشابه وسائله فى الزهد والنسك والتصفية والتخلية والتأمل والطهارة ، مع هؤلاء ومع هؤلاء . ولكنه تشابه عرضى وتقارب شكلى . لأن التصوف الاسلامى ليس مذهبا من مذاهب الفلسفة ، وليس نحلة من نحل الزاهدين والمتأملين وليس هدفه من تلك الوسائل ماتهدف اليه الفلسفة من كمال عقلى . وطاقة نظرية وما ينشده الزهاد والنساك من اطلاق لقوى الروح. حتى تأتى بالعجائب والغرائب .

وإنما التصوف الاسلامى هو كمال فى العبادة . وكمال فى الطاعة . وكمال فى العبودية . هو محبة لله . وعمل على رضاه ، وأمل فى نجواه . هو أنشودة يشترك فيها القلب والروح والحس والجوارح . أنشودة تسبح بحمد الله لا تفتر ولا تهدأ لأن لحنها دائم الحياة فى القلب . دائم الحياة فى الروح . دائم الحياة فى الادراك والحس

أنشودة تحيل الكون بأسره إلى آية ربانيه . يلمسها القلب كما تراها العين وتسمعها الأذن . كما تدركها الروح . فإذا بكل شيء محراب . وإذا بكل شيء مصلى . وإذا بالصوفى لا يبرح المحراب ولا يفارق المصلى ، أينما توجه بوجهه وسبح بفكره . انه دائما مع الله فهو متأدب بأدب من أحس يقينا فى كل لمحة بصر . بأن الله معه يسمع ويرى

وما يأتى بعد ذلك من علم وفيض . وما يأتى بعد ذلك من خارقة أو كرامة . وما يأتى بعد ذلك من كمال روحى أو اشراق نفسى . فهو نافلة ، لأنه وسيلة لا غاية . وسلم لا هدف .

فالمعارف الصوفية إذن ثمرة الكمال فى العبادة ومنحة الفيض فى الطاعة وأنوار القلب فى محبته ونجواه . انها حلى الطريق . لا أساسه وروحه

وإذن فلا سبيل إلى اقامة صلة من الصلات بين التصوف الاسلامى وبين أى لون من ألوان الروحانية العالمية .

ولا سبيل إلى المقارنة بين المعارف الصوفية الاسلامية وبين المعارف الفلسفية والنظرية والعقلية التى جرت على وجه الأرض مع أعنة التاريخ الانسانى .

فتلك المذاهب الفلسفية والعقلية ، قد استمدت معارفها من التفوق العقلى تارة ، ومن الصفاء الروحى تارة أخرى ، أما التصوف الاسلامى ، فمعارفه نبعها عقيدته الاسلامية ، ومددها فيض ربانى داخل نطاق تلك العقيدة القرآنية . وبأسرار عبادتها وبذلك تحددت رسالة التصوف وعرفت ضوابطها بينما أعنت المعارف الروحانية الأخرى . لا تقبض عليها يد تتحاكم إليها ، ولم

ترسم لها شريعة ترجع لها ولم تثبت معارفها فى حقل إيمانى سماوى يمنعها من النزوات والاندفاعات .

التصوف الاسلامى آية سرها فى الهدى القرآنى . والروحانية المحمدية ، وإنى لأحسبه أحيانا آية كونية . لأنه ضرورة لازمة لهذا الوجود ، وغاية من غاياته وحجتنا قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

والتصوف هو أكمل صور العبادات فى خير أمة أخرجت للناس . لأنه تطوع دائم للعبادة . تطوع بعد الفرائض والنوافل ولهذا لم يكن شريعة عامة بل كان ميزة خاصة . لمن أخذ الكتاب بقوة واصطفاه الله وأتاه عزما وعلمه من لدنه علما .

وإذن فلن تعالى إذا قلنا إن قمة المعارف الدينية التى بلغتها الأجنحة الصوفية الإسلامية لم تبلغها بل لم تدن منها أجنحة أخرى . لأنها قمة المحبة الربانية وهى قمة لا تصل إليها إلا الأجنحة المحمدية المؤمنة العابدة .

الطريق الربانى
والمعارف الالهية

الكشف الباطنى ، والفيض الربانى ، هما عنوان التصوف الاسلامى ، وهما المحور الذى تدور حوله المعارف الصوفية، كما تدور حوله الخصومات بينهم وبين رجال الفكر من أصحاب المذاهب النظرية والعقلية . وبينهم وبين رجال العلم الظاهرى . من الفقهاء الذين قدسوا القواعد التى ابتكروها للمعرفة ونادوا بأنها دون سواها . الحكمة وفصل الخطاب .

وأنا أجرؤ فأقول : إنه لا الكشف الباطنى ، ولا الفيض الربانى هدفا من أهداف المتصوفة الاسلاميين ولا غرضاً من أغراض العباد الربانيين .

إنما هدفهم الأول عبادة الله . عبادة خالصة له دون سواه ، عبادة تقربهم منه وتدنيهم من رضاه . وقد تفننوا فى هذه العبادة وجعلوها شرعة ومنهاجا . وكونوا من فلسفتها آدابا وأخلاقا . وسبحوا فى بحارها سبحا طويلا ، فكانت قوتهم ، وكانت حياتهم ، ومن تلك العبادة كان ذوقهم وكان لحنهم .

والمتصوفة حقا ، هم العاملون لا المتكلمون ، هم الذين تطوعوا لله فوق الفرائض والنوافل . وترقوا فى هذا التطوع حتى تكونت لديهم حساسية إيمانية ، أو طاقة تعبدية ، تكاد تدخل فى نطاق المعجزة . حتى إنهم ليراقبون الله مع أنفاسهم ، فكل نفس يخرج من صدورهم ؛ فهو لذكر أو استغفار أو تضرع أو نجوى .

وتلك العبادة الدائمة الخالصة أدنتهم من الله وقربتهم ، فأحبهم وأحبوه ، وأنس بهم ، وأنسوا به . ورضى عنهم ورضوا عنه ، فعمرتهم أنوار المحبة ، وفاضت حياتهم بالنور والسعادة والأنس والقرب . فتكونت لهم فلسفة فى المحبة ، جعلوها شرعة ونهجا ، وأنشودة ولحنا ومن تلك المحبة ، كان ذوقهم

وكان نوبهم . ومنها تفرعت مقاماتهم وأحوالهم ، وعليها كان تحليقهم وكانت معارجهم .

ثم أفاض الله عليهم المعارف اللدنية جزاءاً وفاقا ، ومنحهم الكشف الباطنى هبة وعطاء ورزقهم فوق هذا رزقا أضمروه ، فكان السر الذى ضنوا به حيناً ورمزوا إليه أحيانا ، وسر هذا السر يلتمس عند الأثر المشهور « عبدى أطعنى تكن ربانيا تقل للشيء كن فيكون » .

ذلك فصل الخطاب فى التصوف ، فالكشف الباطنى ، والعلم الباطنى ، والخوارق والكرامات لم تكن هدفا ولا غرضا ولا أملا لدى المتصوفة ، وإنما كانت هبة ومنحة وعطاء ربانيا .

والكشف الباطنى والعلم الربانى ، رغم مادار حوله من جدل وحوار ، ورغم ماأثير بسببه من ملاحاة وخصومات ورد به القرآن الكريم ووردت به الأحاديث الصحيحة .

قال تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » ، « إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » ، « عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » ، « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » ، « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا » .

وقصة موسى والخضر معروفة ومعروضة فى القرآن الكريم عرضا مبينا تجلت فيه مكانة العلم اللدنى ، والمعرفة الباطنية التى أوتيها الخضر من لدن ربه .

ووردت هذه القصة فى كتب الأحاديث الصحاح بصورة مجلوة ناطقة بأن العلم لله وحده . ثم هو للإنسان عارية يمنحه الله لمن يشاء نبيا كان أو وليا .

عن أبى بن كعب ، عن النبى صلوات الله وسلامه عليه قال : قام موسى خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسئل أى الناس أعلم . فقال أنا أعلم . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله فأوحى الله إليه . إن عبداً من عبادى بمجمع البحرين ،

هو أعلم منك . قال : يارب . وكيف به . فقيل له إحمل حوتا فى مكتل فاذا فقدته فهو ثم . فانطلق وانطلق بفتاه يوشع بن نون ، وحملا حوتا فى مكتل حتى كانا عند الصخرة ، وضعا رأسيهما ناما ، فانسل الحوت من المكتل فاتخذ سبيله فى البحر سربا . وكان لموسى وفتاه عجبا ، فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما ، فلما أصبحا ، قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا فى سفرنا هذا نصبا . ولم يجد موسى مسا من النصب حتى جاوز المكان الذى أمر به فقال له فتاه . أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت ، قال موسى ذلك ما كنا نبغى ، فارتدا على آثارهما قصصا ، فلما انتهيا إلى الصخرة ، إذا رجل مسجى بثوب . أو قال مسجى بثوبه . فسلم موسى فقال الخضر ، وأنا بأرضك السلام . فقال أنا موسى . فقال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم . قال هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا ، قال إنك لن تستطيع معى صبرا ، ياموسى إنى على علم من علم الله علمنيه لاتعلمه أنت ، وأنت على علم علمكه الله لاأعلمه .

ثم روى الحديث بقية القصة كما وردت فى القرآن الكريم . وختام الحديث قوله صلوات الله وسلامه عليه « لوددنا لو صبر موسى حتى يعرض علينا من أمرهما » .(١)

الخضر على علم من علم الله . علمه إياه لايعلمه موسى . وموسى على علم علمه له الله لايعلمه الخضر . فالعلم إذن علم الله يهب منه مايشاء لمن يشاء . والعلم صفة من صفات الله يفيض منه على عباده بنسب حكمتها عند فاطر السموات والأرضين وسرها عند من أوحى إلى النحل وأنطق النمل وألهم الطير تسبيحه يقول تعالى : « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء وما كان عطاء ربك محظورا » .

ويقول الغزالى فى الرسالة اللدنية مفصلا بين العلمين الباطنى والظاهرى ومدللا على شرف العلم اللدنى وسيادته .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه .

« وبيان هذا يوجد فى قصة آدم عليه السلام والملائكة فانهم تعلموا طول عمرهم ، وحصلوا بفنون الطرق كثيرا من العلوم حتى صاروا أعلم المخلوقات وأعرف الموجودات وآدم عليه السلام ما كان عالما لأنه ماتعلم . وما رأى معلما . فتفاخرت الملائكة عليه فقالوا نحن نسبح بحمدك ونقدس لك . ونعلم حقائق الأشياء . فرجع آدم عليه السلام إلى باب خالقه وأخرج قلبه عن جملة المكونات . وأقبل بالاستعانة على الرب تعالى ، فعلمه جميع الأسماء . ثم عرضهم على الملائكة . فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، فصغر حالهم عند آدم وقل علمهم وانكسرت سفينة جبروتهم فغرقوا فى بحر العجز ! . قالوا لا علم لنا إلا ما علمتنا . فقال تعالى : « يا آدم أنبئهم بأسمائهم » فأنبأهم آدم عليه السلام عدة مكنونات العلم ومستندات الأمر .

فتقرر الأمر عند العقلاء ، أن العلم الغيبي اللدنى أكمل من العلوم المكتسبة » .

وإذن فالعلم اللدنى مقرر فى أصول الشريعة الإسلامية مبين اللحن فى القرآن والسنة المحمدية . ولكن ومن عجب ؟ أن المتصوفة قد هوجموا هجوما عنيفا قاسيا بسببه من العقليين والفقهاء وخاصة فقهاء الحنابلة . الذين كان أمامهم الجليل أحمد بن حنبل من رؤوس التصوف وأعلامه بأخلاقه وتعبداته ولون حياته وهو القائل « ليس العلم بكثرة التلقين والرواية وإنما هو نور يقذفه الله فى قلب من أحبه وأطاعه » .

وأعجب من هذا العجب أنهم يهاجمون هذا العلم الصوفى فى موقف النقد للمتصوفة . ثم يقررونه فى مواقف أخرى إذا راق لهم الأمر . فابن تيميه وهو رأس تلك الطائفة الناقدة المجرحة يشرح فى رسالته معنى الوحى ثم يعقب قائلا

« والالهام بالمعنى السالف للمؤمنين جميعا يقين » ثم يتحدث عن الفيض الربانى فيقول « وهو لمن أطاع الله واتقاه » ويستشهد على ذلك

بالآيات والأحاديث مهللا ومكبرا لحديث أبو هريرة الذى رواه البخارى عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه « . . . ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها » ثم يقول وهذا الحديث غاية الغايات فى الالهام والفيض .

ويقول ابن القيم تلميذ ابن تيميه الأكبر فى كتابه « الوابل الصيب » « الذكر شجرة وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها كان أعظم ثمرتها . فالذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد » .

وإذن لحتى خصوم المتصوفة قد سلموا بالكشف والفيض والالهام . والمذاهب الروحية العالمية جميعها تؤمن بأن الصفاء الروحى والزهد والاعراض عن مفاتن الدنيا ومباهجها طريقا للمعرفة وطريقا أيضا للخوارق والهيمنة على عناصر الطبيعة .

يقول الأستاذ العقاد فى كتابه عن غاندى شارحا لصلاة غاندى وأثرها فى تكوينه ومقامها من زعامته .

« وصلاة غاندى هى أعظم شيء فى بنيان عقيدته . فنحن لهذا نقترب من فهمه كلما اقتربنا من فهم صلاته ، لأن الصلاة عنده لا تنبث عن طلب أو إستغاثة أو ابتهال . ولكنها تنبعث إلى حس فوق الحس وفوق التفكير وفوق الطلب والابتهال ، وهى عنده أعلى مراتب الوعى الذى يتاح للكائن الموجود ، لأن الروح الإلهى فى اعتقاده سار فى جميع الموجودات ولا يزال الانسان محصورا فى اوهاق الجسد . أو فى اوهاق المادة على العموم . مادام معتمداً على الحراس أو على العواطف أو على التفكير فى ادراك ما حوله ، ولكنه يرتقى إلى مرتبة من الوعى أعلى من مراتب التفكير عند ما يدرك الروح خالصا منزها من هذه الأوهاق .

فهو لا يصل بالحس إلى شيء أرفع من المادة وقد يرتقى بالتفكير إلى

شيء أرفع مما يدركه الحس ولكنه لايتجاوز به حدود المحسوسات .

وهناك مرتبة من التفكير أعلى من مرتبة التعقل المطلق ، وهى مرتبة التأمل والانقطاع بالوجدان عن كل مايحيط بالانسان .

فى هذه المرتبة يستطيع الانسان أن يسيطر على جسده ويسيطر على الطبيعة ويرتقى إلى الحالة التى يقهر بها المادة ويصنع الخوارق ويخالف العادات »

ثم يقول نقلا عن غاندى « إن من يختبر سحر الصلاة قد يستغنى عن الطعام أياما ولا يستغنى عن الصلاة لحظة واحدة ، لأن الصلاة هى من صميم قلب الحياة الانسانية »

وإذن فسيطرة الإنسان على جسده وقمعه لشهواته وتحليه بالفضائل . والتجائه إلى الله . يتيح له فوق الالهام وفوق المعرفة قوة خارقة يسيطر بها على الطبيعة ويرتقى إلى حالة تقهر المادة وتصنع الخوارق .

يقول الإمام الغزالى فى كتابه « تهافت الفلاسفة » مدللا على صحة الالهام وأثره فى الأرواح

(لو لم ير الإنسان المغناطيس وجذبه للحديد ، وقيل له ذلك لاستنكره ، وقال لا يتصور عقلا جذب الحديد إلا بخيط يشد عليه ويجذب به . فإنه المشاهد فى الجذب ، حتى إذا شاهده تعجب منه . وعلم أن علمه قاصر عن عجائب القدرة)

ثم يقول . وفى خزائن القدرة عجائب وغرائب ينكرها من يظن أن لا وجود إلا لما يشاهده »

وجاء فى كتاب « الفلسفة القرآنية » للعقاد تعليقا على كلمة الغزالى « وما يقال عن جذب المغناطيس يقال عن جذب الكواكب أو تجاذبها على هذه الابعاد الشاسعة فى السماء فإن إنتقال التأثير من الجاذب إلى المجذوب حقيقة لاريب فيها ، ولكنها لا تفسر إلا بالفروض والتخمينات ، وتقدير الوسائل التى لا يثبتها العيان ولا يقطع بها البرهان

والعجيب ان ادعياء العلم والعقل يشاهدون هذا وامثاله ويسمعون تعليله الذى يختلف فرضا بعد فروض ، وتخمينا بعد تخمين فيسكتون ويسلمون أنه معقول ومفهوم . ولكنهم يستكثرون تأثير الروح فى الأرواح ، وتأثير العقل فى المعقول . لأنهم يريدون أن يلمسوا بأيديهم كيف تؤثر وكيف تتأثر . ولا يقبلون هنا مايقبلونه فى عالم الحس والعيان ،

ثم يقول « واقرب الكائنات إلى الله هو الكائن الذى يعى ذاته ويعى موجده — أى الإنسان — ويستمد منه قبسا من القدرة الإلهية ،

أجل لاحيلة لنا فى هؤلاء الناس الذين يؤمنون بعجائب الظواهر الطبيعية التى تبنى على الفروض والتخمينات ، ولا يريدون أن يؤمنوا بمثيلاتها فى عالم الروح ، بل يريدون متعنتين أن يلمسوا بأيديهم قدرة الله الخارقة . ويريدون أن يلمسوا بأيديهم كيف يلهم الله من أحب من عباده وكيف يعلمهم من لدنه علما . لا حيلة لنا فى هؤلاء وأمثالهم من المتفاسفين على جهالة . إلا أن نقول لهم كلمة شكسبير على لسان هملت « إن السماء والأرض ياهوراشيو . تحويان من الأسرار مالا تحلم به فلسفتك ،

هل تتعارض المعارف الصوفية

مع القرآن والسنة . . .

روى أحمد والبخارى وأبو داود والنسائى أن الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه سئل . هل خصكم رسول الله بشيء دون الناس . فقال : لا والذى فلق الحبة . وبرأ النسمة ، إلا فهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه ،

وكلمة الامام على كرم الله وجهه مفتاح من مفاتيح التصوف ، أو مفتاح من المفاتيح التى تؤدى بنا إلى فهم حقيقة الروح الصوفى

لأن عماد التصوف وقوامه فى المعرفة . هو الفهم فى الدين ، والبصر بالتأويل . فهما يعطيه الله لمن ارتضى من عباده . واستنباطا يهدى إليه الله من أحب واصطفى

وهذا الفهم ، وذلك الاستنباط من منح الله لعباده . فلسنا إذن فى حاجة إلى أن نقول . إن شرطهما هو موافقتهما للكتاب والسنة . فتلك بديهة من بديهات العقول

فكما أن العبادات فى التصوف قوامها تطوع لما بعد الفرائض والنوافل كذلك علم الباطن هو معان واستنباطات وفهم فى القرآن فوق ما يعطيه العلم الظاهر .

فليس هناك مثلا فهما باطنيا يزيد أو ينقص من الفرائض ، ولا فهما باطنيا يعطل شيئا من الشرائع وإنما هو فهم فى المعنويات ، وفهم فى الكمالات التعبدية والتحليات الأخلاقية .

يقول الشعرانى فى الطبقات الكبرى

« ثم اعلم يا أخى أن علم التصوف عبارة عن علم انقدح فى قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة فكل من عمل بهما . انقدح له من

قوله: «**والسمع والبصر المتعلقان بجميع الموجودات**».

يعني أن سمعه وبصره تعالى ينكشف بهما كل موجود، سواء كان ذلك الموجود قديماً أم حادثاً، ذاتاً كان أو صفة، صوتاً كان أم غيره، فهو تعالى يسمع ويرى الذوات، والألوان، والأكوان، والطعوم، والروائح، والحب، والبغض، وحديث النفس، وسائر الأعراض الوجودية.

فإن قلتَ: كيف يتعلق السمع بغير الأصوات من سائر الموجودات؟ وما الدليل عليه؟

فالجواب أن يقال: الدليل على وجوب تعلق السمع بكل موجود النقل والعقل. أما النقل فقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[1] فالآية نص على سماع موسى عليه السلام لكلامه القديم فكلامه تعالى ليس بحرف ولا صوت، فلو كان السمع مختصاً بالأصوات لزم ألا يسمع موسى عليه السلام كلامه تعالى القديم، فبطل اختصاص تعلق السمع بالأصوات، ووجب تعلقه بكل موجود، وهو المطلوب، وهذا في السمع الحادث فكيف بالسمع القديم؟!

وأما العقل فلأنه لو اختص السمع بالأصوات، ولم يتعلق بغيرها من الموجودات، لزم الافتقار إلى المخصص، والمفتقر أبداً لا يكون إلا حادثاً، وهو محال في حق المولى تبارك وتعالى، فوجب تعلقه بكل موجود، كالبصر، وهو المطلوب. وليس سمعه وبصره تعالى بجارحة كما كان في حق المخلوق، لاستحالة مماثلته تعالى للحوادث، وبالله تعالى التوفيق.

قوله: «**والكلام الذي ليس بحرف ولا صوت، ويتعلق بما يتعلق به العلم من المتعلقات**».

يعني أن كلامه تعالى القديم يستحيل أن يكون بالحروف والأصوات وما في معناها من التقديم، والتأخير والسكوت، والتمديد، واللحن، والإعراب، والسر، والجهر. فهذه كلها من خواص الحوادث، بل كلامه تعالى صفة معنى موجودة وقديمة، قائمة بذاته العلية، ويعبر عنه بالعبارات المختلفات كالتوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، وليست هذه العبارات هي عين كلامه تعالى، لأنها بالحروف والأصوات، بل هذه الحروف دالة على كلام الله تعالى،

(1) النساء: 164.

القديم، ولم يحلّ كلامه تعالى في شيء من الكتب، بل هو قائم بذاته العلية، لا يفارقه، ولا يتصف به غيره، لكن لما كانت حروف القرآن مثلاً دالة على كلام الله تعالى أطلق على القرآن أنه كلام الله تعالى، لقول عائشة رضي الله عنها: «ما بين دفتي المصحف كلام الله» ولهذا أجمع أهل السنة رضي الله عنهم على أن كلام الله تعالى مقروء بالألسنة، مكتوب في المصاحف، محفوظ في الصدور. فبان لك أن الاختلاف إذا وقع إنما هو فيما دل على كلام الله تعالى، وأما كلامه تعالى فليس فيه اختلاف ولا تبديل ولا تغيير، بل هو واحد لا يتعدد، فسبحان من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1]. وسأضرب لك مثلاً يستبين لك به كل ما ذكرناه، فأقول والله المستعان:

إذا نزلت كلام الله تعالى في المثل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[2]، كأنه رجل، فتذكُرُ الرجلَ بلسانك، فيكون ذكر الرجل حالاً على لسانك، والرجل بنفسه غير حالّ على لسانك، فهذا معنى مقروء بالألسنة. وتحفظ في قلبك أمر الرجل إذا أمرك بشيء، أو نهاك عن شيء، أو خوّفك من شيء، أو شوّقك في شيء، فتحفظ جميع ذلك في قلبك، والرجل الذي أمرك ونهاك غير حال في صدرك، فهذا معنى محفوظ في الصدور. وتكتب اسم الرجل في كتاب، فيكون اسم الرجل حالاً في الكتاب، والرجل بنفسه غير حال في الكتاب، فهذا معنى مكتوب في المصاحف.

ولا تحسبن أن التلاوة والقراءة هما كلام الله على اللسان القديم، فليس ذلك كذلك، وإنما هما دالتان على كلام الله سبحانه، ولو كانت التلاوة والقراءة هما كلام الله تعالى القديم على اللسان لحل كلام الله سبحانه على اللسان بحلول التلاوة والقراءة، ولو حل كلام الله سبحانه على اللسان لحل الله حيث حل كلامه، فإن كلام الله عز وجل مقرون بذاته لا يفترقان.

وقد أجمع أهل السنة رضي الله عنهم على أن كلام الله تعالى لا يقوم بذاتين، ولا يتكلم به متكلمان، فلا يتكلم بكلام الله أحد إلا الله سبحانه.

واعلم أن نسبة التلاوة والقراءة لكلام الله تعالى في المثل كنسبة الظل إلى

---

(1) الشورى: 11.
(2) النحل: 60.

الصورة. فمن ظن أن التلاوة والقراءة هما كلام الله القديم فهو كرجل رأى ظل صورة فقال: «هذا الظل هو الصورة بعينها».

واعلم أنك إذا سمعت كلام الله تعالى من البشر سمعته متلوّاً مقروءاً، وإن سمعته من الله تعالى في الآخرة سمعته لا متلواً ولا مقروءاً. فإن القرآن راجع في حق البشر إلى التلاوة والقراءة، وهو في حق الربوبية منزه عن التلاوة والقراءة والحروف والأصوات واللغات. فإن الله عز وجل متكلم لا يلفظ ولا يُنطق، وكلام الله تعالى شيء واحد يفهم منه الأمر والنهي: والترهيب والترغيب، وليس بعربي، ولو كان عربياً لكان لغة من اللغات، وإنما التلاوة منه عربية فقط، وتسمية كلام الله تعالى قرآناً تسمية إلٰهية، لا تسمية اصطلاح.

فإن قال قائل: إذا كانت التلاوة حادثة فما معنى قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨﴾(1)؟

فالجواب: إنه يحتمل أن يكون جبريل عليه السلام هو التالي، ويضيف الله ذلك إلى نفسه، كقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦﴾(2)؛ وهم الحرّاثون الذين يشقون الأرض؛ فأضاف الله سبحانه ذلك إلى نفسه.

ومن زعم أن الله عز وجل قارىء وتالٍ فقد خرج عن مذهب أهل السنة، بل مذهبِ المسلمين، لأن معنى التلاوة والقراءة عند أهل السنة رضي الله عنهم صوت القارىء ونغمته، تعالى الله عن ذلك علو كبيراً، ومن هنا نفهم بفضل الله تعالى قوله عز وجل: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾(3)، وروح القدس هو جبريل عليه السلام.

وقيل: إن معنى ذلك أن جبريل عليه السلام كان في جهة الفوق، فسمع كلام الله تعالى من الله، أو يوحى إليه من الله، أو تلقاه من اللوح المحفوظ، والله تعالى ليس في جهة، فعبر جبريل عليه السلام لمحمد ﷺ بلسان عربي عما فهم من كلام الله عز وجل أو حفظه من اللوح المحفوظ، وأداه إلى رسول الله ﷺ. فالعبارة عربية، والمعبَّر عنه - وهو كلام الله عز وجل - غير

---

(1) آل عمران: 58.
(2) عبس: 26.
(3) النحل: 102.

عربي. فهذا معنى النزول.

ويتعلق كلام الله تعالى بكل واجب وجائز ومستحيل، كالعلم. ومعنى تعلقه مثاله مثل دلالته، فمثال دلالته على الواجب قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾[1] الآية، لأن وحدانيته تعالى واجبة، وصمدانيته واجبة، والصمد هو الذي يلجأ إليه غيره، قال الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾[2]. ولا شك في وجوب افتقار كل ما سواه إليه.

ومثال دلالته على المستحيل قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[3].

ومثال دلالته على الجائز قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[4]، لأن الخلق من الجائزات.

فهذا معنى تعلق الكلام، وبالله التوفيق.

فائدة

سماع موسى عليه السلام لكلام الله ليس المراد منه أنه كان ساكتاً وتكلم، ولا انقطع كلامه بعد السماع، وإنما المراد أنه تعالى أزال المانع عنه، وقوّاه حتى سمع كلامه، ورد المانع فلم يسمع، وبالله التوفيق.

قوله: «**ثم سبع تسمى صفات، معنوية، وهي ملازمة للسبع الأولى، وهي كقوله تعالى قادراً ومريداً وعالماً وحياً وسميعاً وبصيراً ومتكلماً**».

هذه الصفات مشتقة من صفات المعاني، أي مأخوذة منها، ولهذا سميت صفات معنوية، وهي ملازمة للسبع الأولى إلى آخرها، هذه صفات معنوية، وهي منسوبة إلى المعاني، والفرق بينهما أن صفات المعاني هي صفات واجبة الوجود، قائمة بذاته العلية كما تقدم.

---

(1) الإخلاص: 1 ـ 2.
(2) فاطر: 15.
(3) الإخلاص: 3 ـ 4.
(4) القصص: 68.

وأما الصفات المعنوية فهي صفات توصف بها الذات، وليست موجودة، بل الموجودة صفات المعاني فقط دون المعنوية، فكونه تعالى قادراً عبارة عن قيام القدرة بذاته تعالى، وكونه تعالى مريداً عبارة عن قيام الأرادة بذاته تعالى، وكونه تعالى عالماً عبارة عن قيام العلم بذاته تعالى، وكونه تعالى حياً عبارة عن قيام الحياة بذاته تعالى، كونه تعالى سميعاً عبارة عن قيام السمع بذاته تعالى، وكونه تعالى بصيراً عبارة عن قيام البصر بذاته تعالى، وكونه تعالى متكلماً عبارة عن قيام الكلام بذاته العلية. والحاصل أن معنى الصفات المعنوية راجعة إلى صفات المعاني، ولم يقم بالذات العلية سوى المعاني، وبالله تعالى التوفيق.

قوله: «**ومما يستحيل في حقه تعالى عشرون صفة، وهي أضداد العشرين الأولى، وهي العدم والحدوث وطروء العدم**».

لما فرغ الشيخ رضي الله تعالى عنه من العشرين الواجبات شرع يتكلم في العشرين المستحيلات، ورتبها على حسب ترتيب أضدادها الواجبات. فالعدم ضد الوجود، والحدوث ضد القدم، وطروء العدم ـ أي لحوقه ـ ضد البقاء.

قوله: «**والمماثلة للحوادث بأن تكون جِرماً، أي تأخذ ذاته العلية قدراً من الفراغ**».

هذا تفسير لمعنى المماثلة المستحيلة التي هي ضد المخالفة، فذكر أن المماثلة على أنواع، منها ما يكون جرماً، وحقيقة الجرم هو كل ما يقوم بنفسه، ويشغل فراغاً، كالإنسان وغيره من ذوات المخلوقات، كل ذلك يسمى جرماً، ويجمع على أجرام، أي مقادير تشغل فراغاً.

قوله: «**أو يكون عرضاً يقوم بالجرم**».

هذا أيضاً من أنواع المماثلة المستحيلة، وهي كونه تعالى عرضاً، وحقيقة العرض هو المعنى القائم بالجرم، ولا يصح أن يقوم بنفسه، وذلك كالألوان والطعوم والروائح والأصوات والحركات والسكون، فهذه كلها أعراض يستحيل قياسها بنفسها، وإنما تفتقر إلى جرم تقوم به، وبهذا تعرف أن كل مخلوق منحصر في الأجرام والأعراض، وأن الموجودة بالنسبة إلى المحل والمخصص

على أربعة أقسام: قسم غني عن المحل والمخصص، وهو ذات مولانا جل وعز، وقسم مفتقر إلى المحلل والمخصص، وهي الأعراض، أي الصفات القائمة بالأجرام لاستحالة استغنائها عنها. وقسم مفتقر إلى الفاعل ولا يحتاج إلى ذات يقوم بها، وهي الأجرام. وقسم موجود في ذات ولا يحتاج إلى الفاعل، وهي صفات مولانا جل وعز.

قوله: «**أو يكون في جهة للجرم**».

هذا أيضاً من أنواع المماثلة المستحيلة، وهي كونه تعالى في جهة للجرم، فلا يقال: إن الله تعالى فوق العرش أو تحته، أو عن يمينه، أو عن شماله، أو أمامه، أو خلفه، لأن ذلك كله من صفات الأجرام، وهو تعالى، منزه عن ذلك، فسبحان من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

قوله: «**أو له هو جهة**».

هذا أيضاً من أنواع المماثلة المستحيلة عليه تعالى، وهي إثبات الجهة له، لأن الجهة من خواص الجرم الذي يلزمه الطول والقصر واليمين والشمال، ونحو ذلك من صفات الأجرام، وهو تعالى لس بجرم، فليس له عز وجل جهة، ومن اعتقد الجهة في حقه تعالى فقيل: إنه يكفر، وقيل: لا يكفر، وهو فاسق مبتدع، وبالله تعالى التوفيق.

قوله: «**أو يتقيد بمكان أو زمان**».

يعني أنه يستحيل عليه استقراره تعالى على المكان، كالعرش مثلاً، لأن الامكنة محدثة لا يستقر عليها إلا مفتقر إليها، فهو تعالى لا يحل في مخلوق، ولا يجاوره، ولا يقابله، ولا يلامسه، ولا يلاصقه،ولو حل ربنا في مكان لكان محتاجاً إلى المكان، ولو احتاج إلى المكان لعجز عن تكوين المكان وغيره. وكل كائن في مكان لا يخلو من ثلاثة أوجه: إما أن يكون أصغر من المكان، أو مقدوراً بتقدير المكان، أو أكبر منه. ومن كانت هذه صفاته جاز عليه التحيز والخصوصية بالجهة، وكان وجوده وجوداً على التقييد، لا وجود على الإطلاق، فيلزم أن يكون جسماً، وبهذا تعرف استحالة تقييد وجوده بالزمان، لأن وجوده تعالى مطلق أزلي، والزمان حادث، لأنه عبارة عن حركة الفلك، أو عن اقتران حادث بحادث، وقد «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن

على ما عليه كان»[1]، فسبحان الغني عن المكان والزمان.

قوله: «**أو تتصف ذاته العلية بالحوادث، أو يتصف بالصغر أوالكبر، أو يتصف بالأغراض في الأفعال أو الأحكام**».

يعني أنه يستحيل قيام الحوادث بذاته تعالى العلية، واتصافه بالصغر أو الكبر، وما في معنى ذلك من الألوان والأكوان، لأن ذلك كله من خواص الأجرام، وكذلك اتصافه تعالى بالغرض في فعله أو حُكْمه مستحيل، فلا غرض له في فعل شيء، ولا في تحليل شيء أو تحريمه. فلو كان له تعالى غرض في شيء لزم أن يحتاج إلى تكميل غرضه، والاحتياج نقص، والنقص عليه تعالى محال، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾[2]، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾[3].

قوله: «**وكذا يستحيل عليه تعالى ألا يكون قائماً بنفسه، بأن يكون صفة يقوم بمحل، أو يحتاج إلى مخصص**».

عرفت فيما سبق أن معنى قيامه تعالى بنفسه هو استغناؤه عن الذات والفاعل، وضد ذلك احتياجه إليهما، وهو محال كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

قوله: «**وكذا يستحيل عليه تعالى ألا يكون واحداً، بأن يكون مركباً في ذاته، أو يكون له مماثل في ذاته أو صفاته، أو يكون معه في الوجود مؤثر في فعل من الأفعال**».

قد تقدم أن معنى الوحدانية في نفي التركيب في ذاته تعالى، ونفي مثل له تعالى في الذات والصفات والأفعال، فضد ذلك، وهو عدم الوحدانية في الثلاثة، محال، وهو المطلوب.

(1) أخرجه المتقي الهندي، كما سبق ذكره لكن دون زيادة: «وهو الآن على ما عليه كان».
(2) محمد: 38.
(3) الأنبياء: 23.

قوله: «**وكذا يستحيل أيضاً عليه تعالى العجز عن ممكن ما**».

هذا ضد القدرة، لأنه قدرته تعالى تتصرف في كل ممكن، فلو عجز عن ممكن واحد لزم احتياجه إلى مخصص، فيكون حادثاً، فعجزه تعالى محال، قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

قوله: «**وإيجاد شيء من العالم مع كراهته لوجوده**».

أي عدم إرادته له تعالى.

«**أو مع الذهول، أو الغفلة، أو بالتعليل، أو بالطبع**» إلى آخره.

هذا ضد الإرادة، فيستحيل أن يخلق الله شيئاً من غير إرادته تعالى، أو يكون في ملكه ما لا يريد. وفسر المصنف الكراهة بنفي الإرادة لأنها هي التي يستحيل خلق شيء معها. واحترز به من الكراهة الشرعية، وهي نهيه تعالى عن فعل شيء مع خلقه له. فهذه الكراهة يصح إيجاد الفعل معها، كما أضل الله تعالى كثيراً من الخلق، مع نهيه لهم عن ذلك الضلال.

«**وكذا يستحيل أن يوجد الله تعالى شيئاً وهو ذاهل عنه أو غافل عنه**».

الذهول عبارة عن غيبة أمر سبقه علم، والغفلة عبارة عن غيبة أمر سبقه علم أو لم يسبقه، والذهول أخص.

«**وكذا يستحيل عليه تعالى، أن تكون ذاته العلية علة في إيجاد شيء، أو إيجاد شيء بالطبع**».

فلا يقال إن الله تعالى أوجد الخلق بطبعه، وأن ذاته العلية هي العلية في الإيجاد، وذلك محال. فلو كان تعالى يخلق الأشياء بالعلة أو بالطبيعة لكان المخلوق قديماً، لأن العلة لا تكون إلا مع معلولها من غير تأخير، مثال ذلك تحريك الأصبع مع تحريك الخاتم، فتحرك الأصبع هو العلة، وتحرك الخاتم هو المعلول، فمهما تحرك الأصبع تحرك الخاتم معه في زمن واحد من غير تأخير. فكذلك لو كانت الذات علة في خلق الأشياء، وخلق الأشياء معلول، لزم أن يكون العالم قديماً لقدم علته، وهي الذات، وكذلك الإيجاد بطريق

---

(1) المائدة: 120، هود: 4، الروم: 50، الشورى: 9، الحديد: 2، التغابن: 1، الملك: 1.

الطبع يلزم منه قدم العالم ولا قديم إلا الله عز وجل. فبطل الإيجاد بطريق العلة والطبيعة، وتعين الإيجاد بطريق الاختيار، وبالله تعالى التوفيق.

قوله: **«وكذا يستحيل أيضاً عليه تعالى الجهل وما في معناه بمعلوم ما»**.

هذا أيضاً ضد العلم، فيستحيل عليه تعالى الجهل، وكل ما هو في معناه، كالظن والشك والوهم والنوم والنسيان عليه تعالى: والتفكر في الأشياء، هذا كله مستحيل، بل هو تعالى عالم بكل ما كان، وما يكون، وما لا يكون أن لو كان كيف يكون، من غير شك، ولا ظن، ولا وهم، ولا تفكّر، ولا دليل، ولا برهان، فسبحان الله الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء[1].

قوله: **«والموت والصمم والعمى والبكم»**.

هذه أضداد ما تقدم، فالموت ضد الحياة، والصمم ضد السمع، والعمى ضد البصر، والبكم ضد الكلام، وفي معنى البكم كون كلامه بالحروف والصوت والسكوت لأن ذلك كله من خواص الحوادث.

«ولا يقال لأي شيء».

نبه المصنف رحمه الله تعالى على استحالة الموت، وما بعدها، مع أن هذه نقائص بالنسبة إلى المخلوق، فكيف بالخالق جل وعلا؟! فلا يتوهم اتصاف الباري بها لأنا نقول: يصح نفي النقائص عنه تعالى ولو لم يتوهم اتصافه تعالى بها، بدليل قوله ﷺ في الدجال: «أنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور»[2]، وقوله ﷺ: «إنكم لا تدعون أصم ولا أعمى ولا غائباً»[3]، الحديث. ففي الحديث تنبيه على أن نفي النقص عنه تعالى كمال ولو لم يتوهم.

---

(1) إشارة إلى الآيتين 61 من يونس، و3 من سبأ.

(2) أخرجه أحمد في مسنده،والبغوي (انظر كنز العمال: حديث 39698 و39699).

(3) نقله الغزالي في «الإحياء» بلفظ: «يا أيها لناس إن الذين تدعون ليس بأصم ولا غائب، إن الذي تدعون بينكم وبين أعناق ركابكم»، وهو لأبي داود عن أبي موسى الأشعري، كما رواه البخاري، ومسلم مع اختلاف في اللفظ (انظر المغني: الباب الثاني من كتاب الحج، 1/ 296، والباب الثاني من كتاب الأذكار والدعوات: 1/ 363).

قوله: **«وأضداد الصفات المعنوية واضحة من هذه»**.

يعني: إنك إذا عرفت أضداد صفات المعاني عرفت أضداد الصفات المعنوية منها، فضد كونه تعالى قادراً كونه عاجزاً، وضد كونه مريداً كونه ليس بمريد، وضد كونه تعالى عالماً كونه جاهلاً، وضد كونه حياً كونه ميتاً، إلى آخرها وبالله تعالى التوفيق.

قوله: **«وأما الجائز في حقه تعالى ففعل كل ممكن أو تركه»**.

لما فرغ المؤلف رحمه الله تعالى من الواجبات والمستحيلات شرع يتكلم فيما يجوز في حقه، فذكر أن الجائز في حقه تعالى فعل كل ممكن أو تركه. مثال الجائز: الثواب، والعقاب، وبعث الرسل عليهم الصلاة والسلام، ورؤية المولى الكريم في الجنة، وغير ذلك من الممكنات. فلا يجب عليه تعالى فعل كل ممكن ولا تركه، وإنما فعل ذلك تفضلاً منه تعالى على عبيده، لأنه لا حقّ لأحد عليه في استحقاق ثواب على الطاعة، لأنه لا يقوم له نفع بطاعة أحد، وأيضاً فالطاعة خلق الله تعالى، وليس للعبد فيها إلا الاكتساب، ولا أثر له فيها، وكل ما أتى به الشارع وأخبر به من ثواب وعقاب إنما هو جائز في العقل، يصح وجوده وعدمه، قبل مجيء الشرع، وأما بعد مجيء الشرع فهو واجب بالشرع لا بالعقل، وبالله تعالى التوفيق.

قوله: **«أما برهان وجوده تعالى فحدوث العالم»**.

البرهان هو الدليل القاطع، البرهان والدليل والحجة والسلطان ألفاظ مترادفة على معنى واحد، فحقيقة البرهان ما تركب من مقدمتين يقينيتين. والحدوث هو الوجود بعد العدم، وكل ما سوى الله تعالى حادث، والعالَم - بفتح اللام - كل ما وجد من المخلوقات، وهو دليل على وجود الباري تعالى، وبالله تعالى التوفيق.

قوله: **«لأنه لو لم يكن له محدث، بل حدث بنفسه لزم أن يكون أحد الأمرين المتساويين مساوياً لصاحبه، راجحاً عليه بلا سبب، وهو محال»**.

لما عرفت أن حدوث العالم، وهو ما سوى الله تعالى؛ دليل على وجود الباري جل وعز، وكان ذلك الدليل لا يصح إلا بإبطال حدوث العالم بنفسه،

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ استحالة وجود العالم بنفسه، فقال: «**لو لم يكن محدث، بل حدث بنفسه لزم أن يكون أحد الأمرين المتساويين**»؛ وهما الوجود والعدم؛ «**مساوياً لصاحبه، راجحاً عليه بلا سبب**».

ومعنى ذلك أن الوجود والعدم هما على حد سواء، بمعنى أن العالم يصح وجوده، ويصح عدمه، على السواء، من غير ترجيح. ولو صح أن يحدث العالم نفسه لزم أن يكون الشيء مساوياً لصاحبه، راجحاً عليه بلا سبب، وهو محال. فوجب أن يكون المحدثُ للعالَم غيرَهُ، وذلك الغير هو الله سبحانه. فظهر لك استحالة العالم بنفسه، بل هو مفتقر إلى غيره في تخصيصه بالموجود دون العدم المساوي له، وفي تخصيصه بالمكان المخصوص دون سائر الأمكنة، وفي تخصيصه بالزمان المخصوص دون سائر الأزمنة، وفي تخصيصه بالمقدار المخصوص دون سائر المقادير، وفي تخصيصه بالصفات المخصوصة دون سائر الصفات. فهذه الأشياء كلها متساوية، لأن وجوده مساوٍ لعدمه، ومقداره المخصوص مساوٍ لسائر المقادير. فاختصاصها وترجيحها يدل على أن المرجح غيرها، وهو الله عز وجل، مثال ذلك كفتا الميزان المعتدلتان، لا تميل إحداهما بالأخرى إلا بثقل يزداد في المائلة دون الأخرى، أو ينقص من الأخرى دون المائلة، والرجحان فيهما متضاد كتضاد وجود الشيء وعدمه. ثم لو كنا نشاهد الكفتين على بعد، وإحداهما نازلة، والأخرى مرتفعة، ثم علمنا أنهما قد تبدل حالهما، فارتفعت النازلة، ونزلت المرتفعة، ولم تَرَهلْ زِيد في التي نزلت ثقل، أو نقص ذلك من الأخرى، وخفي ذلك عنا لأجل البعد، لكنا نعلم قطعاً أن ذلك ما حدث إلا بسبب ثقلٍ زِيدَ في التي نزلت، أو نقص من التي ارتفعت.

ولو عرضنا على عقولنا أن ذلك كان لا لسبب حدث لوجدنا عقولنا تنكر ذلك أشد إنكار، فوجود العالم وعدمه كالكفتين، فإذا علمنا أن العالم كان معدوماً، وعلمنا أن عدمه ترجح بوجوده، علمنا قطعاً أن ذلك ما كان إلا لسبب حادث ترجح به الوجود اللاحق على العدم السابق، فبان لك من ذلك أن ما حدث لا بد لحدوثه من سبب، وذلك السبب هو الله تعالى، المنفرد بإيجاد الكائنات كلها، وبالله تعالى التوفيق.

قوله: «**ودليل حدوث العالم ملازمته للأعرض الحادثة من حركة وسكون**

وغيرهما، وملازم الحادث حادث، ودليل حدوث الأعراض مشاهدة تغيرها من عدم إلى وجود، ومن وجود إلى عدم».

لما ذكر المؤلف رحمه الله تعالى أن حدوث العالم دليل على وجوده تعالى؛ ذكر دليل حدوث أجرام العالم، ودليله ملازمته الأعراض الحادثة، لأن أجرام العالم يستحيل انفكاكها عن الأعراض، كالحركة والسكون، وهذه الأعراض حادثة بدليل مشاهدة تغيرها من عدم إلى وجود، فلو كانت قديمة لزم ألا تنعدم أبداً، لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه، فإذا ثبت حدوثها وملازمتها للأجرام لزم حدوث الأجرام قطعاً، لأنه يستحيل خلوّ الجرم منها، وملازم الحادث حادث، وبالله التوفيق.

قوله: **«وأما برهان وجوب القدم له تعالى، فلأنه لو لم يكن قديماً لكان حادثاً، فيفتقر إلى محدث، ويلزم الدور أو التسلسل».**

اعلم أن كل موجود لا يخلو إما أن يكون قديماً أو حادثاً، ولا قديم إلا الله عز وجل، وصفاته، وكل ما سواه حادث مفتقر إليه، ويستحيل حدوثه تعالى، فلو كان حادثاً لزم أن يفتقر إلى محدث آخر قبله، وذلك المحدث يحتاج إلى محدث آخر قبله، فإذا وقف العدد فهو دور، والدور مستحيل، لأنه يلزم عليه أن يكون خالقاً مخلوقاً، وإن لم يقف العدد، وكان قبل كل حادث حادث إلى غير نهاية، فهو تسلسل، وهو محال. فوجب أن يكون قديماً، وهو المطلوب.

قوله: **«وأما برهان وجوب البقاء له تعالى، فلأنه لو أمكن أن يلحقه العدم لانتفى عنه القدم، لكون وجوده حينئذٍ يصير جائزاً لا واجباً، والجائز لا يكون وجوده إلا حادثاً، كيف وقد سبق قريباً وجوب قدمه تعالى وبقائه؟!».**

يعني أنه تعالى لو صح أن يطرأ عليه العدم لزم أن يكون وجوده جائزاً ـ والموجودات بالنسبة إلى العدم ثلاثة: موجود يستحيل في حقه العدم السابق واللاحق، وهو ذات مولانا جل وعز وصفاته، وموجود يجب في حقه العدم السابق واللاحق، وهي الأعراض، وموجود يجب في حقه العدم السابق، ويجوز في حقه العدم اللاحق، وهي الأجرام ـ لأن حقيقة الجائز ما يصح في العقل وجوده وعدمه. وإذا كان جائزاً لزم أن يفتقر إلى المخصص الذي

خصصه بالوجود دوم العدم لما عرفت من تساوي الوجود والعدم. وإذا افتقر إلى مخصص لزم أن يكون حادثاً، وهو محال، لوجوب قدمه تعالى بالبرهان القاطع، فوجب استحالة عدمه ووجوب بقائه، وهو المطلوب.

قوله: «**وأما برهان وجوب قيامه تعالى بنفسه مخالفته تعالى للحوادث، فكأنه لو ماثل شيئاً منها لكان حادثاً مثلها، وذلك محال، لما عرفت قبلُ من وجوب قدمه تعالى وبقائه**».

يعني: أنه لو ثبت الشبه بينه وبين شيء من مخلوقاته لزم حدوثه تعالى، لأنه لو كان مماثلاً لشيء منها يجب أن يعجز كعجزها، فلا يقدر على خلق شيء منها، لأن ما جاز على المثل يجوز على مماثله، وذلك مستحيل لما عرفت قبلُ من وجوب قدمه تعالى وبقائه. وأيضاً لو ماثل تعالى شيئاً من الحوادث لزم حدوثه لأجل مماثلته، ولزم قدمه لأجل ألوهيته، وكون الشيء قديماً حادثاً محال.

قوله: «**وأما برهان وجوب قيامه تعالى بنفسه فلأنه لو احتاج إلى محل لكان صفة، والصفة لا تتصف بصفات المعاني، ولا المعنوية، ومولانا جل وعز يجب اتصافه بهما، فليس بصفة، ولو احتاج إلى مخصص لكان حادثاً، وقد قام البرهان على وجوب قدمه تعالى وبقائه**».

قد تقدم أن معنى قيامه تعالى بنفسه أنه عبارة عن استغنائه جل وعز عن ذات يقوم بها، وعن الفاعل، وذكر المؤلف رحمه الله تعالى هنا دليل الاستغناء عن الذات والفاعل، فقال: إنه لو احتاج إلى ذات يقوم بها لزم أن يكون صفة، وكونه تعالى صفة محال، لأن الصفة يستحيل أن تقوم بها صفات المعاني والمعنوية، فلو قامت بها لزم التسلسل، لأنه إذا قامت صفة ثبوتية بصفة أخرى لزم أن تقوم بها صفة أخرى، وتلك الصفة تقبل أن تقوم بها صفة أخرى، وهكذا إلى غير نهاية، فدخل في الوجود ما لا نهاية له من الصفات الثبوتية، وذلك محال. فبان لك استحالة كون الصفات محلاً لقيام صفات المعاني والمعنوية، والبرهان القاطع دل على وجوب اتصافه تعالى بهما، فوجب أن يكون ذاتاً، وتلك الذات غنية عن الفاعل، إذ لو احتاجت إلى الفاعل لزم الحدوث، وهو باطل لِما تقدم من برهان وجوب القدم والبقاء.

التصوف برىء من وحدة الوجود

وحدة الوجود، وفكرة الاتحاد والحلول. فكرة الحادية قديمة، عريقة فى العبادات الهندية والديانات البوذية. وخلاصتها التى تقربها إلى العقول. أن أصحابها انقسموا إلى فريقين. فريق يرى الله سبحانه وتعالى عما يصفون، روحا ويرى العالم جسما لذلك الروح، وإن الانسان إذا سما وتطهر، ارتفع فالتصق بالروح - التى هى الله - ففنى فيها. فذاق السعادة الكبرى وظفر بالخلود الدائم.

والفريق الثانى يرى أن جميع الموجودات لاحقيقة لوجودها غير وجود الله. فكل شىء فى زعمهم هو الله. والله هو كل شىء، يتجلى تجليا حقيقيا فى كل شىء فى الكون بذاته، فلا موجود إلا الوجود الواحد، ومع ذلك يتعدد بتعدد الصور تعددا حقيقيا واقعيا فى نفس الأمر ولكن ذلك التعدد لا يوجب تعددا فى ذات الوجود، كما أن تعدد أفراد الانسان لايوجب تعددا فى حقيقة الانسان، أو تعدد صور الانسان الواحد فى المرايا المجاورة لا تحتم تعدده.

تلك هى فكرتهم فى وحدة الوجود. وهى سفسطة لايقبلها منطق ولا عقل ولا شرع. سفسطة تذهب بالشرائع كافة والأديان جميعها، وتنال من الجلال والكمال الواجب لله سبحانه وتعالى، وتبطل الجزاء والعقاب والجنة والنار. والحياة الأخروية. كما تبطل الحدود بين الخالق والمخلوق فتجعل الخلق والخالق شيأ واحدا.

وهذا الأفك الأكبر، وهذا اللغو الألحادى الفاجر هو الذى قذف به خصوم التصوف المتصوفة. وهم منه إيمانا وكمالا وأدبا وخلقا، ووحدانية وتقديسا لفاطر السموات والأرضين.

قذف خصوم التصوف المتصوفة بهذا الأفك. متخذين من حبهم لربهم تكئة ومقعداً لهذا الاتهام. وركض بهذا الافك فى محراب التصوف رجال الاستشراق الذين لبسوا ثوب العلم بالاسلام بل ثوب الدفاع عنه.

ثم تفلسف المستشرقون. وتفلسف المتعالمون من الجهلاء بالتصوف والاسلام، فقالوا ان للتصوف علاقات وثيقة ببوذا ووثنية الهند. وان وحدة الوجود وفكرة الحلول، عند المتصوفة أقباس من الصوفية البوذية ولمحات من فلسفة المدرسة الاشراقية.

ونسوا أو تناسوا، ان التصوف الاسلامى، قام على كتاب الله وسنة رسوله وهديه. وان الصوفى المسلم يقرأ فى كتاب ربه «ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير» فيقرأ خلاصة العلم الذي يتعلمه طلاب اللاهوت فى سائر الملل والنحل. وينطوى تحت هذا البلاغ المبين كل فلسفة تتشدق ببحث الذات والصفات، والخلق والخالق.

يقول الشعرانى فى اليواقيت «ولعمرى أن عباد الأوثان لم يتجرؤا أن يجعلوا آلهتهم عين الله. بل قالوا مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فكيف يظن بأولياء الله تعالى أن يدعوا الاتحاد بالحق سبحانه. هذا محال فى حقهم رضوان الله عليهم.

ويقول الامام محي الدين بن عربي فى عقيدته الوسطى «اعلم ان الله سبحانه واحد باجماع وقيام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء، أو يحل هو فى شيء أو يتحد بشيء.

ويقول فى باب الأسرار من الفتوحات «لا يجوز للعارف أن يقول انا الله، ولو بلغ أقصى درجات القرب. وحاشا للعارف من هذا حاشاه.

ويقول أيضاً فى لواقح الأنوار «من كمال العرفان شهود عبد ورب، وكل عارف نفى شهود العبد فى وقت ما، فليس بعارف، وإنما هو فى ذلك الوقت صاحب حال، وصاحب الحال سكران لا تحقيق عنده.»

ويقول فى الفتوحات « لا حلول ولا اتحاد . فان القول بالحلول مرض لا يزول ، وما قال بالاتحاد إلا أهل الألحاد ، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول ومن دينه معلول» .

ويقول فى باب الأسرار « أنت أنت . وهو هو . فإياك أن تقول كما قال العاشق ، أنا من أهوى ومن أهوى أنا . فهل قدر هذا أن يرد العين واحدة ، لا والله . والجهل لا يتعقل حقا » .

وقال أيضا « إياك أن تقول أنا هو . وتغالط . فانك لو كنت هو لاحطت به كما أحاط تعالى بنفسه » .

ثم يقول « لو صح أن يرق الانسان عن انسانيته والملك عن ملكيته ويتحد بخالقه تعالى ، لصح انقلاب الحقائق وخرج الإله عن كونه إلها ، وصار الحق خلقا ؟ والخلق حقا ؟ وما وثق أحد بعلم . وصار المحال واجبا . فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبداً » .

ويقول الجنيد شيخ الطريقة فى الرد على الفجرة الفسقة أصحاب وحدة الوجود « إن هذا كلام من يقول بالاباحة . والسرقة والزنا عندنا أهون حالا ممن يقول بهذه المقالة » .

وسئل العارف الربانى الإمام سهل بن عبدالله التسترى عن ذات الله عز وجل فقال « ذات الله موصوفة بالعلم غير مدركة بالاحاطة ، ولا مرئية بالأبصار فى دار الدنيا ، وهى موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا حلول ، وتراه العيون فى العقبى ظاهرا فى ملكه وقدرته ، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته : ودلهم عليه بآياته ، فالقلوب تعرفه . والعقول لاتدركه ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية » .

ويقول أيضا « مخاطبا الغرور البشرى والوجود الإنسانى » يا مسكين كان الله ولم تكن . ويكون الله ولا تكون . فلما كونك اليوم صرت تقول . أنا وأنا ، كن الآن كما كنت قبل تكوينك . واعرف فاقة نفسك وحقارتها ، ونزلها منزلتها من الذلة والاحتقار » .

ويقول الشعرانى فى المنن

« وبعضهم رأى أن كل شىء فى الوجود هو الله ، وأن عين هذا الوجود الحادث هو عين الله . من الجماد والنبات والعقارب والحيات . والجان والانسان ، والملك والشيطان . ويجعلون الخالق هو عين المخلوق من خسيس ونفيس ومرجوم وملعون حتى إبليس . وهذا كلام لا يرضاه أهل الجنون ولا من كان فى حبه جنون . والذى أقوله ، إن إبليس لو ظهر ونسب إليه هذا المعتقد لتبرأ منه واستحى من الله تعالى ، وإن كان هو الذى يلقى إلى نفوسهم ذلك

وقد حكيت لسيدى على الخواص بعض صفات هؤلاء الذين يقولون هذا القول ، فقال : هؤلاء زنادقة ، وهم أخس الطوائف . لأنهم لا يرون حسابا ولا عقابا ولا جنة ولا نارا ولا حلالا ولا حراما ولا آخرة ولا لهم دين يرجعون إليه ولا معتقد يجتمعون عليه وهم أخس من أن يذكروا لأنهم خالفوا المعقولات والمنقولات والمعانى وسائر الأديان التى جاءت بها الرسل عن الله تعالى ولا يعلم أحداً من طوائف الكفار اعتقد اعتقاد هؤلاء ، فان طائفة من النصارى قالت المسيح ابن الله وكفرهم القوم الآخرون وطائفة من اليهود قالت العزير ابن الله وكفرهم القوم الآخرون . فلم يجعلوا الوجود عين الله تعالى . »

مقام الفنـــاء

وأخطاء الحلوليين . . .

تلك هي كلمة التصوف في وحدة الوجود ، ولعمري إنها أقوى الكلمات الاسلامية دفعا لتلك النظرية الوثنية وهدما لها ، وهي أعلى كلمات الاسلامية استنكارا لهون ما تنطوي عليه من كفريات وإباحيات ملعونة مرجومة ، حتى إن الشعراني ليقول : إن ابليس نفسه وهو ملهم الخبائث لا يجرؤ على تلك القولة الملعونة والتي ارتكب أربابها أمرا إدا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتخر الجبال هدا (١)

ولسائل أن يسأل فكيف إذن نسبت إلى التصوف أو إلى بعض المتصوفة ومن أي باب أدخلها المغرضون ووثب بها الواثبون .؟ ومن أي باب أيضا تسللت طوائف الافك التي رمت التصوف أو بعض المتصوفة بالحلول والاتحاد . ؟

لقد تسلل المزيفون والمغرضون إلى المحراب الصوفي بذلك الإفك الأكبر ليطفئوا نوره ويحطموا نبراسه متخذين ومن عجب آيته الكبرى وهي المحبة ، أو مقام الفناء تكأة لأكاذيبهم الآثمة .

فالتصوف قوامه الذكر والعبادة ، والتأمل والطاعة ، وثمرته التجلي والمحبة ، وما يلهم التجلي وما تلهم المحبة ، وبين بدايته ونهايته . أحوال ومقامات ومعارج ونفحات . سرها الترقي الدائم في صفاء القلب ، والهامات الروح واشراقات الحس

وأول مقامات المتصوف المقبل على ربه ، بل أول مقامات المؤمن العابد

---

(١) من أراد التوسع في دراسة موقف التصوف الاسلامي من نظرية وحدة الوجود فليراجع ذلك في كتابنا عن « محيي الدين بن عربي »

هو أن يعبد الله كأنه يراه . فإذا عبده تلك العبادة وتحقق بجلالها ، فهل تظن أنه يرى سواه جل جلاله .

يقول الشعراني

ومن يقول لا موجود إلا الله ، فذلك من مقام المريد المبتدىء لأنه من شدة تعشقه فى الطريق ، وترحل قلبه عن محبة غير الله تعالى يصير قلبه محجوبا عن شهود الأكوان كما يقع لصاحب المصيبة إذا مات له ولد ، أو تلف له مال ، فانه من شدة المصيبة يصير يدخل الدار ويخرج ولا يرى صاحبه الجالس على بابه ، فاذا سئل هل رأيت فلانا ، قال لا . فاذا قيل له لقد كان أمامك ، قال والله من شدة الهم ما رأيته ،

ثم يقول ، وليس مراد المبتدىء فى الطريق أن ينفى وجود العالم كله كما يظن من لا علم له بأحوال أهل الطريق ، بل مراده أن الله تعالى قد أخذ حبه بمجامع قلبه حتى حجبه عن شهود خلقه .

وإذا كان النساء اللاتى خرجن على يوسف عليه السلام ذهلن عن أنفسهن حتى قطعن أيديهن ولم يشعرن بألم القطع فكيف بذهول من تعلق قلبه بحب ربه وشاهد من آياته الكبرى

وقد روى القشيرى عن الشبلى أنه كان يزور فى بداية أمره شيخه الحصرى كل يوم جمعة فقال له شيخه يوما . يا أبا بكر إن خطر فى بالك غير الله تعالى من الجمعة إلى الجمعة فلا تعد تأتينا فانه لا يجيء منك شيء ،

ذلك هو أدب الطريق الصوفى الذى يلقنه الشيوخ للمبتدئين ، أن ينفوا الوجود عن قلوبهم بل عن خواطرهم ، لتمتلىء كل جوارحهم بذكر الله وحب الله وجلال الله .

تلك معنويات عليا يتذوقها المؤمنون العابدون ، ولا شأن لها بما أراد المضللون الذين توهموا فى هذا القول المنير وحدة الوجود ، أو الاتحاد والحلول .

لم يفهم المتصوفة بهذا القول الإيمانى العظيم وجود الكون، ولم يتصوروا بل لم يجل بخواطرهم، أن معنى ذلك وحدة أو حلول، انهم قوم حجبتهم المحبة عما سوى الله فلم يروا فى الكون سواه، مسألة حسية وجدانية، ليس معناها أن الكون قد زال أو فنى. وإنما معناها أن القلب المحب قد استغرقه جلال محبه الأعظم فلم ير إلا إياه.

يقول الشعرانى «أجمع أهل الحق على أن حقائق الأشياء ثابتة فكيف يصح نفيها، إنما العبد يحجب عنها بما دهمه من الأمور العظيمة، قيل للشبلى ما التوبة، قال ألا تشهد فى الدارين سواه، أى لا تشهد فى الدارين خالقا أو ربا أو رازقا أو مؤثرا ومدبرا سواه، وإن شهدت لأحد وساطة أو أثرا فى عمل ما فلا تلتفت إلى ذلك

وليس معنى هذا أن لا تشهد غير الله أصلا من جميع الأكوان فإن ذلك لا يصح للقريين وذلك معنى قوله صلوات الله وسلامه عليه (أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد)

«ألا كل شيء ما خلا الله باطل»

أى كالباطل، من حيث إن كل شيء قائم بالله تعالى لا بنفسه، فإن شاء الله أبقاه وإن شاء أذهبه فى لمح البصر أو هو أقرب»

ذلك فناء المبتدئين. أو مقام المريدين أو حجاب السالكين فى أول الطريق، يحجبون بحب الله عما سواه، أما الكمل السادة فقد ارتفعوا فوق تلك المعانى ولم يقفوا مع العقبات، بل رؤا الله جل جلاله ورؤا الكون أيضا، وذلك كما يقول محى الدين، أكمل ألوان العبادات

يقول السراج الطوسى فى اللمع «غلطت جماعة من البغداديين فى قولهم أنهم عند فنائهم عن أوصافهم دخلوا فى أوصاف الحق. وقد أضافوا أنفسهم بجهلهم إلى معنى يؤدى بهم إلى الحلول أو إلى مقالة النصارى فى المسيح عليه السلام.

فإن وجد فى كلام الكمل من المتصوفة معنى الفناء ، فى الله جل شأنه ، فالمعنى الصحيح المقصود من ذلك . أن الارادة للعبد وهى من عند الله عطية ومعنى خروج العبد من أوصافه والدخول فى أوصاف الحق ، خروجه من ارادته ودخوله فى ارادة الحق . وذلك منزل من منازل أهل التوحيد

وأما الذين غلطوا فى المعنى إنما غلطوا بدقيقة خفيت عليهم حتى ظنوا أن أوصاف الحق هى الحق ، وهذا كله كفر . لأن الله تعالى لا يحل فى القلوب ، ولكن يحل فى القلوب الايمان به والتوحيد له والتعظيم لذكره . »

ثم يقول فى اللمع أيضا متحدثا عن مقام الفناء «هو فناء رؤيا العبد فى أفعاله لأفعاله»

« ويقول الهجورى واصفا الفناء «بأنه فناء ارادة العبد فى ارادة الله ، لا فناء وجود العبد فى وجود الله »

ذلك هو الفيصل بين المتصوفة وخصومهم : فالفناء الصوفى هو فناء معنوى . لا فناء مادى كما توهم المتوهمون .

يقول القشيرى فى باب الفناء «ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عينا ولا رسما ولا طللا ، يقال انه فنى عن الخلق وبقى بالحق »

ثم يقول « وفناؤه عن نفسه وعن الخلق بزوال احساسه بنفسه وبهم ، فإذا فنى عن الأفعال والأخلاق والأحوال ، فلا يجوز أن يكون ما فنى عنه من ذلك موجودا . وإذا قيل فنى عن نفسه وعن الخلق فنفسه موجودة والخلق موجودون ، ولكنه لا علم له بهم ولا به وقد ترى الرجل يدخل على ذى سلطان فيذهل عن نفسه وعن أهل مجلسه هيبة حتى إذا سئل بعد خروجه من عنده عن أهل مجلسه لم يمكنه الاخبار بشىء »

هو فناء اجلال وحب وإذن ، لا فناء عين ، فناء القلب المستغرق فى أنوار الجلال الإلهى عما سواه .

وروى الشعرانى فى الطبقات عن الشيخ عبد الرحمن القفسونجى وهو يشرح حال المراقبة

« والمراقبة . لعبد راقب الحق بالحق ، وتابع المصطفى صلى الله عليه وسلم فى أفعاله وأخلاقه وآدابه والله عز وجل قد خص أحبابه وخاصته بأن لا يكلهم فى شيء من أحوالهم إلى نفوسهم ولا إلى غيره ، فهم يراقبون الله تعالى ويسألونه أن يرعاهم .

والمراقبة تقتضى حال القرب والله عز وجل قرب القلوب إليه بما هو قريب منها فهو يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه فانظر بماذا يقرب من قلبك .

وحال القرب يقتضى حال المحبة ، وهى تتولد من نظر القلب إلى الله عز وجل وجلاله وعظمته وعلمه وقدرته . فطوبى لمن شرب كأسا من محبته . وذاق نعيما من مناجاته . فامتلأ قلبه حبا فطار بالله طربا . وهام به اشتياقا ، ليس له سكن ولا مألوف سواه . فهو محب خرج من رؤية المحبة إلى المحبوب بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب فى الغيب ولم يكن هو بالمحبة . فاذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محبا بلا علة . والمحبة تقتضى الذكر ، فلا يزال المحب يذكر ربه ويدخل الخلل فى ذكره لنفسه حتى يصير الغالب عليه ذكر ربه . وصار كالغافل عن نفسه ثم يغفل عن ذهوله عن نفسه وينسى باستيلاء ذكر ربه عليه جميع الأحاسيس ، فيتالف فى عن نفسه ويقال فى بربه . وهو هنا يكون مختطفا عن نفسه . ممحوا عن جملته . فانيا عن كله ،

سئل أبا يزيد عن عمره فقال أربع سنوات ويجيب البسطامى شارحا تلك الكلمة بقوله « حجبت عن الله سبعين سنة ولم أره إلا فى السنوات الأربع الأخيرة . وعليه فالسبعون الأولى ليست من عمرى »

وهذا الشعور الكامل بالتجلى الإلهى والاحساس الصادق بالحب الربانى يزداد حتى يبلغ الحد الأعلى فيذهب عن المحب وعيه ، بل تكاد تذهب عنه

بشريته . ليغدو جوهراً أو كالجوهر وهى الحالة التى يعبرون عنها بالذوق والشرب والغيبة ويجمع ذلك كله ، كلمة الوجد

ويعد المتصوفة الفناء فى حالة الوجد نهاية سفرهم إلى ربهم فيصبح الصوفى هنا فى قمة فوق العالم لأنه استغنى عنه

وهذه هى حالة البقاء ، والانسان فيها انسان كامل ، وهذا موقف لا مجال للقول فيه أو كما يقول الغزالى « يصل الانسان إلى حالة يضيق نطاق النطق عن وصفها »

مقام الفنـــاء

وابن تيميـــه

ومن عجب أن مقام الفناء الذى اتهم فيه المتصوفة بوحدة الوجود تارة، والاتحاد والحلول تارة أخرى، مقام من صميم التوحيد الاسلامى، بل هو المقام الذى ترتكز عليه العبادات الربانية كافة حتى إن ابن تيميه وهو خصم التصوف الأكبر ليخصص لشرحه فى كتبه مكانا لم يخصصه لغيره من مواقف الفكر الايمانى.

يقول الإمام ابن تيميه فى كتابه العبودية [1] متحدثا عن مقام الفناء. الفناء فى المحبة الإلهية.

(الفناء عن إرادة ما سوى الله. بحيث لا يحب إلا الله. ولا يعبد إلا إياه. ولا يتوكل إلا عليه. ولا يطلب من غيره. وهو المعنى الذى يجب أن يقصد بقول الشيخ أبى يزيد حيث قال: أريد أن لا أريد: أى المراد المحبوب المرضى. وهو المراد بالإرادة الدينية. وكمال العبد. أن لا يريد ولا يحب ولا يرضى إلا ما أراده الله. ورضيه وأحبه وهذا معنى قولهم فى قوله تعالى — إلا من أتى الله بقلب سليم — قالوا هو السليم مما سوى الله. أو مما سوى عبادة الله أو مما سوى إرادة الله. أو مما سوى محبة الله. فالمعنى واحد. وهذا المعنى إن سمى فناء أو لم يسم. هو أول الاسلام وآخره. وباطن الدين وظاهره).

ثم يتحدث ابن تيميه عن المقام الثانى فى مقامات الفناء فيقول:

«وأما النوع الثانى. فهو الفناء عن شهود السوى. وهو يحصل لكثير من السالكين. فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته

---

(1) ص ٩٦

ومحبته ضعفت قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد . وترى غير ما تقصد . لا يخطر بقلوبهم غير الله . بل ولا يشعرون . كما قيل فى قوله تعالى — وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كانت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها — قالوا فارغا من كل شىء إلا من ذكر موسى . وهكذا كثيرا ما يعرض لمن دهمه . أمر من الأمور إما حب . وإما خوف وإما رجاء . يبق قلبـــه منصرفا عن كل شىء إلا عما قد أحبه أو خافه أو طلبه . بحيث يكون عند استغراقه فى ذلك لا يشعر بغيره فاذا قوى على صاحب الفناء هذا . فإنه يغيب بموجوده عن وجوده وبمشهوده عن شهوده . وبمذكوره عن ذكره . وبمعروفه عن معرفته حتى يفنى من لم يكن . وهى المخلوقات المبعدة ممن سواه . ويبق من لم يزل وهو الرب تعالى . والمراد فناؤها فى شهود العبد وذكره . وفناؤه عن أن يدركها أو يشهدها . وإذا قوى هذا ضعف المحب حتى يضطرب فى تمييزه . فقد يظن أنه هو محبوبه . كما يذكر أن رجلا ألقى نفسه فى اليم فألقى محبه نفسه خلفه . فقال : أنا وقعت فما أوقعك خلفى : قال : غبت بك عنى . فظننت إنك إنى) .

أليست تلك المقامات من حالات الفناء . هى المقامات التى يرى فيها المتصوفة بوحدة الوجود .

يقول ابن تيمية خصم التصوف الأكبر . (فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته ضعفت قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد . وترى غير ما تقصد) .

وهل قال المتصوفة أكثر من هـــذا القول . ومن عجب أن ابن تيمية يهاجم التصوف والمتصوفة لأنهم يقولون إنهم فى نشوتهم الكبرى لا يرون إلا الله ويذهلون عما سواه أى نفس ما يقول ابن تيمية .

إنهم ليرون الله فى كل شىء . ومع ذلك يوقنون بأنه سبحانه فوق كل شىء . وهذا أكمل درجات التوحيد .

ويقول ابن تيمية أيضا في مجموعة رسائله (١) وأما قول الشاعر في شعره

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

فهذا إنما أراد به الشاعر الاتحاد المعنوى . كاتحاد أحد المحبين بالآخر . الذى يحب أحدهما ما يحب الآخر ، ويبغض ما يبغضه . ويقول مثل ما يقول ويفعل مثل ما يفعل . وهذا تشابه وتماثل . لا اتحاد العين بالعين . إذ كان قد استغرق في محبوبه . حتى فنى به عن رؤية نفسه . كقول الآخر .

غبت بك عنى فظننت أنك أنى

فهذه الموافقة . هي الاتحاد السائغ .

ويقول ابن تيميه أيضا في الرسائل (روى البخارى في صحيحه عن أبى هريرة عن النبى بقوله تعالى ـ من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ـ فقوله من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة . فجعل معاداة عبده الولى . معاداة له فعين عدوه عين عدو عبده . وعين معاداة وليه عين معاداته . ليسا هما شيئين متميزين ،

ويذكر أيضا ابن تيميه حديثا رواه مسلم في صحيحه عن أبى هريرة عن النبى . يقول الله تعالى ، عبدى مرضت فلم تعدنى . فيقول يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين . فيقول : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلو عدته لوجدتنى عنده . عبدى جعت فلم تطعمنى . فيقول : رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين . فيقول : أما علمت أن عبدى فلانا جاع فلو أطعمته لوجدت ذلك عندى ،

ولم أجد رداً على خصوم المتصوفة الذين هاجموهم في مقام الفناء وتسللوا منه إلى اتهامهم بوحدة الوجود ، وفكرة الاتحاد والحلول ، أبلغ من هذا التفصيل الرائع لمقامات الفناء الذى كتبه ابن تيميه خصم التصوف الأكبر ،

---

(١) ص ٥٢

والذى رمى المتصوفة بوحدة الوجود . وقذفهم بالاتحاد والحلول متخذا برهانه من كلامهم فى الفناء والمحبة

ولم أجد شاهدا أكبر دلالة مما استشهد به هو من القرآن الكريم «وأصبح فؤاد أم موسى فارغا» أى فارغا مما سوى موسى

وقلب المتصوفة لشدة حبهم لربهم .أصبح فارغا مما سوى الله جل جلاله. وربنا سبحانه أكبر وأعظم من أن يشبه بعبد من عباده أو برسول من رسله

وليقل بعد ذلك المغرضون ما شاؤا . . .

جهاد الشعرانى

السبحات الفلسفية والتصوف

لقد حمل الشعرانى أعباء رسالة علمية إصلاحية ، ما أظن أن صوفيا سواه ، بل لا أعتقد أن عالما من المفكرين الاسلاميين حمل مثلها أو قام بشبيه لها .

تلك الرسالة هى التوفيق بين شتيت الآراء والمذاهب والأفكار الإسلامية ، والتقريب بينها بتنقيتها من التطرف ، وإبعاد الدخلاء والزائفين عن ساحاتها ، وباتخاذه دائما موقفا وسطا محدداً كالصراط المستقيم .

عمل الشعرانى على التوفيق بين الفقه والتصوف .أو بين الشريعة والحقيقة كما يقال فى الاصطلاح ،وخصص لذلك الجانب الأكبر من دراساته وكتبه .

كما جاهد للتوفيق بين التصوف ،وبين رجال الكلام والتوحيد، وأصحاب النظر العقلى من الفلاسفة والمتكلمين ، يقول الشعرانى فى كتابه الميزان « وحاولت المطابقة بين عقائد أهل الكشف وعقائد أهل الفكر حسب طاقتى ولم يسبقنى إلى ذلك أحد » .

وبذلك اتفق الشعرانى مع الغزالى فى ناحية . واختلف معه فى الناحية الأخرى ، فقد سعى الغزالى جاهدا من قبله للتوفيق بين الفقه والتصوف ، ولكنه فى الناحية الأخرى حارب الفلسفة بعنف وقسوة ، ولم يهادنها ولم يقبل معها تفاهما ، ولم يرض لها حجة .

وبهذا الموقف الذى اتخذه الشعرانى شعاراً له ، اضطر مكرها للحاربة والصراع فى كافة الميادين الفكرية والساحات العلمية .

فقد حارب الشعرانى وحورب من أدعياء التصوف ، من المجاذيب والبهاليل والدراويش ، وكانوا أصحاب الجاه والسطوة فى عهده .

كما حارب وحورب من الفقهاء المتزمتين الذين جمدوا على آراء وكتب أغرمت بالافتراض، وأولعت بالجدل والحوار وملئت بكل غريب وشاذ، وحارب وحورب من رجال الكلام الذين ملؤا الدنيا صياحا وهتافا بأنهم وحدهم سدنة الإيمان وحجابه ، وأن الإيمان الحقيقي الذي يقبله الله هو ماابتكرته أقلامهم ، وما اشترطوا له من قيود وسدود وحدود .

كما حارب الشعراني أيضا المتفلسفين من رجال التصوف ونازلهم منازلة قاسية ، حتى إننا لنراه أحيانا يهاجم محي الدين ، وهو المحب الأكبر والتلميذ الأمين لمحي الدين . ويهاجم الغزالي مع إجلاله العظيم لحجة الاسلام ، ويهاجم جمهرة من سادة المتصوفين القدامى مع احترامه لهم وتقديره . ولكن الشعراني يهدف لغاية أكبر من الحب والاجلال ، والتقدير للسابقين من المتصوفة . كان يهدف إلى حماية العقول العامية وأشباه العامية في عهده من صولة الآراء الصوفية ، وهي صولة لايعرفها إلا من ذاق وعرف . وهي صولة أكبر من أن تطيقها العقول الضعيفة ، أو تحتملها القلوب الجامدة .

وعصر الشعراني كان لايطيق تلك الصولة القوية للآراء الصوفية العليا ، فعمل الشعراني للصالح العام، ولم يلق بالا إلى عواطف الحب والاحترام.فقام بهجومه الكبير القوي على كلمات التصوف المجنحة، وعباراته الرحيبة الأفق التي تحمل أكثر من معنى وتؤدى إلى أكثر من غاية.

يقول الشعراني : وبالجملة فلاتحل قراءة كتب التوحيد الخاص وكتب العارفين إلا لعالم كامل أو من سلك طريق القوم ، وأما من لم يكن واحدا من هذين الرجلين فلاينبغي له مطالعة شيء من ذلك خوفا عليه من إدخال الشبه التي لايكاد الفطن أن يخرج منها فضلا عن غير الفطن .

ثم يقول :

« ولكن من شأن النفس كثرة الفضول ومحبة الخوض فيما لايعنيها وقد وضع بعض العلماء من السلف كتابا جمع فيه كثيرا من الكلمات التي ينطق

بها العوام مما يؤدى إلى الكفر وحذر فيه من النظر فى جملة من الكتب ؛ وقد حبب إلى أن أذكر لك طرفا من ذلك لتجتنب النطق به والنظر فيه . فأقول وبالله التوفيق :

ومما يقع فيه كثير من الناس قولهم — يامن يرانا ولانراه — وقولهم (ياساكن هذه القبة الخضراء) وقولهم — سبحان من كان العلا مكانه — . ونحو ذلك لايجوز التلفظ به لما يورث من الايهام عند العوام، وأن لله تعالى مكانا خاصا ، وإن قال هذا القائل أردت بقولى ، ولا نراه ، عدم رؤيتنا له فى الدنيا ، قلنا له قد أطلقت القول ، والاطلاق فى محل التفصيل خطأ . وقد أجمع أهل السنة على منع كل إطلاق لم ترد به الشريعة ، سواء كان فى حق الله تعالى أو فى حق أنبيائه ، أو فى حق دينه ، وكان الشيخ أبو الحسن الأشعرى يقول ، ما أطلق الشرع فى حقه تعالى أو فى حق أنبيائه أطلقناه . ومامنع منعناه وما لم يرد فيه إذن ولا منع نظرنا فيه . فان أوهم مايمتنع فى حقه تعالى منعناه وإن لم يوهم شيأ من ذلك رددناه إلى البراءة الأصلية ، ولم نحكم فيه بمنع أو إباحة فقد اتفق الإمامان على منع كل إطلاق يوهم محظورا فى حق الله تعالى ، وتبعهما العلماء على ذلك قاطبة . وكذلك منع من يقول — يادليل الحائرين ، يادليل من ليس له دليل — ونحو ذلك وكله لم يرد به شىء .

وقد أجمع أهل الحق على وجوب تأويل أحاديث الصفات كحديث ينزل ربنا إلى سماء الدنيا . وقد بلغ بأحد الضالين أن يقول وكان على المنبر فنزل درجا منه وقال للناس ، ينزل ربكم عن كرسيه إلى سماء الدنيا كنزولى عن منبرى هذا ، وهذا جهل ليس فوقه جهل .

ومما يمنع شرعا إطلاق بعضهم على الله تعالى — الخمار — والساقى — وراهب الدير — وصاحب الدير — وليلى — ولبنى وسعدى ، واسماء ، ودعد ، وهند ، والكنز الأكبر ، ونحو ذلك . وكذلك لايجوز اجماعا إرادة ذاته تعالى بقول بعضهم .

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

وقول بعضهم :

تمازجت الحقائق بالمعاني فصرنا واحدا روحا ومعنى

فكل هذا وأمثاله لايجوز عند أهل السنة والجماعة وقد سألت سيدى عليا الخواص عن التغزلات التى فى كلام القوم . هل مرادهم بها الله تعالى . فقال : لا . إنما مرادهم بها الخلق ، ولكن يفهم الفاهم منها فى حق الحق مايبعثه عند سماعها إلى الحضور مع الحق .

قال لأن أولياء الله تعالى أعرف الخلق بالله تعالى بعد الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ويجلون الحق تعالى عن أن يجعلوه محلا لتغزلاتهم . فلذلك ضربوا الأمثال بالمحبين والمحبوبين . من قيس وليلى ونحو ذلك

وكذلك مما ينبغى اجتنابه قول بعضهم — مافى الوجود إلا الله — وقولهم — إن الله فى قلوب العارفين — وإنما الصواب أن يقال : ما فى الوجود فى الأزل إلا الله : ومعرفة الله فى قلوب العارفين : وإليه الاشارة بحديث (وسعنى قلب عبدى المؤمن) أى وسع معرفتى من غير احاطة بى وكذلك مما ينبغى اجتنابه قولهم — هذا زمان سوء — لأن الزمان هو الدهر . والدهر هو الله ، وكذلك قول بعض الخطباء ، سبحان من لم يزل معبودا . لأنه عبد عند من لم يعلم كونه معبودا بالقوة ، أى أهلا لأن يعبد لأنه يوهم قدم العالم ، وذلك كفر .

ومما يجب اجتنابه قولهم — ياقديم الزمان — لأن الرب لا يتقيد بالزمان . فهو كلام باطل . وكذلك قول بعضهم — كل ما يفعله الله خير — لا يهامه نفى وجود الشر فى العالم ، وأن كل ما يكسبه العبد من المعاصى خير وكذلك قول فلان ، يطلع على الغيب — لأنه يوهم باطلا — وإنما الأدب أن يقال : فلان له فراسة صادقة . أو كشف أو إطلاع فقط . لئلا يزاحم

الرسل فى مقام الظن والقطع . فانه ليس للأولياء إلا الظن الصادق فقط ، الذى هو فى إصطلاحهم عبارة عن الاعتقاد الصحيح الجازم المطابق للواقع فقط . وهذا الظن هو الذى يسمونه إلهاما وفتحا وكشفا .

وكذلك مما يجتنب قوله . قول بعضهم - باعك الله - وأقالك الله - إذا اشتغل فى البيع أو الاقالة . لأنه يوهم مذهب أهل الاتحاد . وذلك كفر.

قال الامام العلامة عمر بن محمد الأشبيلى فى كتابه المسمى (لحن العوام) وليحذر من العمل بمواضع من كتاب الأحياء للغزالى ومن كتاب النفخ والتسوية له . وغير ذلك من كتب القوم . فإنها أما مدسوسة عليه أو وضعها فى أوائل أمره . ثم رجع عنها كما ذكر فى كتابه - المنقذ من الضلال - .

وكذلك يحذر من مواضع فى كتاب (القوت) لأبى طالب المكى نحو قوله - الله تعالى قوت العالم - ومن مواضع فى تفسير (مكى) ومن مواضع كثيرة فى كلام أبن ميسرة الحنبلى ،

ويعدد الشعرانى كتباً كثيرة ثم يقول .

« وليحذر أيضا من مطالعة كتب الشيخ محي الدين بن عربى رضى الله عنه ، لعلو مراقيها ولما فيها من الكلام المدسوس على الشيخ ، لا سيما الفصوص . والفتوحات المكية . فقد أخبرنى الشيخ أبو طاهر عن شيخه عن الشيخ بدر الدين بن جماعة . أنه كان يقول « جميع ما فى كتب الشيخ محي الدين من الأمور المخالفة لكلام العلماء مدسوس عليه . وكذلك كان يقول . الشيخ مجد الدين صاحب القاموس »(١)

ويوالى الشعرانى حملته الكبرى فيقول :

« وليحذر أيضا من مطالعة كتب عبد الحق بن سبعين مما يوهم الحلول

(١) المنن جزء أول ص ٢٤٥

والاتحاد والتشبيه وأقوال الملحدين . ومنع بعضهم من سماع كلام سيدى عمر بن الفارض فى التائية . والجمهور على جواز ذلك مع التأويل ».

ويختم الشعرانى تلك الدراسة المؤمنة الصادقة التى يهدف بها إلى حماية العوام وأشباه العوام من صولة التصوف والمتصوفة بقوله :

« فهذه عدة نصائح وتحذيرات قد سقناها إليك . فزنها بميزان الشرع . وعليك بمطالعة كتب الشريعة من حديث وتفسير وفقه والاقتداء بأئمة الدين من الصحابة والتابعين . وتابع التابعين ومقلديهم من الفقهاء والمتكلمين . وإياك والاجتماع بهؤلاء الجماعة الذين تظاهروا بطريقة القوم ».

والشعرانى وهو يهاجم التفلسف فى التصوف ويرفع الستار عن الدخيل والمدسوس على المتصوفة ، لا ينسى أبداً رسالته كصوفى ولا ينسى أن يكشف الستار عن حقائق العلم الصوفى الصادق الذى صدر عن وجد وحب ، أو عن ذوق رفيع واصطلاح صوفى يدق على من لم يتذوق ألحان القوم ومقاصدهم .

ولهـــذا فهو يعقب على حملته بدفاع حار عن أقطاب التصوف وعن كلمات لهم أو اصطلاحات أولها الناس فخرجوا بالتأويل عن مقاصدهم وأهدافهم .

ومن هـذا القبيل ، كلمة حجة الاسلام الغزالى المشهورة — ليس فى الامكان أبدع مما كان — والتى أخذها ابن تيمية وسيلة لتجريح الغزالى والتهكم به ، بدعوى أن فى هذا القول ما يشبه الحجر على قدرة الله فى الابداع المستمر .

يقول الشعرانى كلمة الغزالى كلمة مؤمنة صادقة وإن جهلها خصومه لأن جميع الممكنات أبرزها الله على صورة ما كانت فى علمه تعالى القديم ، وعلمه القديم لا يقبل الزيادة ، وفى القرآن الكريم — أعطى كل شىء خلقه ثم هدى

ودافع أيضا عن شيخه الأكبر محي الدين بن عربي وأوضح ما يريده من قوله في الفتوحات وغيرها ـ حدثني قلبي عن ربي . أو حدثني ربي عن قلبي . أو حدثني ربي عن نفسه تعالى . بارتفاع الوسائط .

يقول الشعراني : ليس مراده أن الله تعالى كلمه كما كلم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإنما مراده أن الله تعالى يلهمه على لسان ملك الالهام بتعريف ببعض أحوال . فهو من باب قوله صلى الله عليه وسلم : ان يكن في أمتي محدثون فعمر

ثم يقول الشعراني : ومما نقل عن القوم . قولهم اللوح المحفوظ هو قلب العارف ليس مرادهم نفي اللـــوح المحفوظ وإنما مرادهم أن قلب العارف إذا انجلى أرتسم فيه كل ما كتب في اللوح المحفوظ نظير المرآة إذا قابلها لوح مكتوب .

وقولهم أيضا ، دخلنا حضرة الله : وخرجنا عن حضرة الله : ليس مرادهم بحضرة الله عز وجل مكانا خاصا معينا فإن ذلك ربما يفهم منه التحيز للحق، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وإنما مرادهم بالحضرة حيث أطلقوها شهود أحدهم أنه بين يدى الله عز وجل . فما دام يشهد أنه بين يدى ربه عز وجل فهو في حضرته . فإذا حجب خرج عن حضرته تعالى . وللشعراني في هذا الباب إسهاب وتفصيل لم يسبق إليه

وبذلك أنصف الشعراني التصوف الصادق بدفاعه الصادق كما أنصف الحقيقة بهجومه على كل من شطح أو تفلسف فأوهم كلمه ما يخدش الايمان أو يتنافى مع حقائق الاحسان .

وكان الشعراني في الموقفين كعهده أبدا على الجادة الواضحة والصراط المستقيم . والطريقة الوسطى .

بين الشعرانى وادعياء التصوف

فساد التصوف فى عصره

خضعت مصر لحكم المماليك حقبة طويلة كانت فيها على غير فطرتها ونهجها التاريخى فمصر منذ فجر التاريخ ، أمة مفكرة ، مؤمنة عابدة . فهى أول أمة اهتدت إلى التوحيد وعبدت الله جل جلاله على نوره . وهى أول أمة شيدت للعبادة وللروحانية أضخم وأجل ما عرفت الانسانية من معابد وهيا كل مقدسة .

وإلى مصر لجأت وعاشت وازدهرت اليهودية والمسيحية والاسلامية وفى مصر عاش موسى وعيسى ويوسف ، وغيرهم من الأنبياء الذين قص الله سبحانه قصصهم فى القرآن ، وغيرهم من لم يقصص .

فالتاريخ الروحى لمصر ، تاريخ حافل ، بل هو التاريخ الغالب ، بل هو سرها التاريخى الذى أمدها دائما بالحيوية والقوة ، وإذا فقدت مصر هذا السر يوما ، فقد فقدت روحها ، أو بالتالى فقدت حياتها العزيزة الكريمة .

ثم هبط أرض مصر العنصر القوقازى ، هبط أفراده أذلاء أرقاء ، وما هى إلا دورة من دورات التاريخ حتى أصبح المماليك سادة مصر وحكامها وأصبح عرش مصر نهبا لكل واثب بسيف وصائل برمح وضارب بسهم .

وأسس المماليك فى مصر قوة حربية من أعظم القوى التى عرفها العالم الإسلامى ، بل من أعظم القوى فى تاريخ العسكرية العالمية .

ولكن المشاعل العلمية ، والمصابيح الايمانية التى كانت تضىء لمصر ، وتضىء من مصر للعالم أخذ نورها يخبو فى عهد المماليك ، بل أخذ نورها يفنى ويتبدد ، وتخنقه الظلمات ، فما كان المماليك يوما من الأيام رجال فكر

أو علم ، وما كان لهم طاقة على العلم والفكر ، وما كانت تصوراتهم عن الدين إلا تصورات جاهلة حمقاء ، انحصرت فى دائرة واحدة هى دائرة التعصب الحاد الأحمق للاسلام دون فهم له ، أو استنارة بآدابه ونهجه .

وامتد حكم المماليك وطالت أيامه، فأخذت القبضة الفولاذية تضعف وأخذ التناحر على الحكم بينهم يشتد ويعنف . وغدت مصر مرتعاً لاقسى أنواع النهب والسلب وأشد أنواع الظلم والاستبداد فلم يعد هناك حصانة لمال أو عرض أو حياة ، بل كل شىء للاقوى ولا شىء أبداً للضعيف العاجز .

وانعزلت مصر عن العالم ، وأقيم بينها وبين الحضارات العالمية سدود وقيود ، وبعدت مصر عن ينابيع الهدى الإيمانى الإسلامى . فقامت دولة الخرافة والأسطورة ، وساد العصر الذى يسمى بحق عصر الدراويش . أو دولة الأولياء الكاذبين ، وهو العصر الذى لازال بقاياه تشاهد فى بعض مواكب رجال الطرق الصوفية التى تذرع ريف مصر بطبولها الساذجة ، وأعلامها الممزقة . وأهدافها الأسطورية البدائية .

العصر الذى لا تزال بقاياه تشاهد فى تلك المهازل التى تحف بأضرحة الأولياء فى القاهرة وعواصم المدن ، المهازل التى يسمى أصحابها بالدراويش والمجاذيب وضاربى الرمل وكاشفى الغيب ، وصانعى المعجزات !! ؟؟

ومن عجب أن الدين الإسلامى ، وهو الذى ابتعث البدو الأميين من صحاريهم ، ليكونوا هداة عالميين فى ساحات العلم والحضارة وما إلى العلم والحضارة ، وقواداً فاتحين فى ميادين الحرب والجهاد وما إلى الحرب والجهاد ، قد تحول فى مصر فى أواخر عهد المماليك ، أو حوله أصحابه إلى مجموعة ضخمة هائلة من البدع والخرافات والأساطير الذليلة ، إلى مجموعة ضخمة هائلة من الغموض والابهام والتحلل من الاخلاق والتمرد على الآداب والشعوذة السمجة الوقحة .

وتستر الدجالون والمشعوذون والمتحللون وراء التصوف يتخذونه شعارا ودثارا وحماية لهم ، وباسم هذا التصوف الزائف ارتكبت أشنع الجرائم ضد الدين ، ونهبت الأموال ، وهتكت الأعراض ، وهدمت الفرائض وأهدرت الآداب .

وبعد أن كانت علة التصوف فى عصور الارتفاع العلمى ، هى لسيحات الفلسفية التى دست عليه وتسربت إلى مجراه من الفلسفات العالمية المحيطة به ، أصبحت علة التصوف هى تلك العامية المتحللة من الاخلاق ، المتهالكة على الشهوات ، المهدرة لكل المقدسات .

حتى رأينا من يخطب على المنابر عاريا ، ويخطب فى الناس قائلا « السلطان ودمياط وباب اللوق وبين الصورين وجامع طولون والحمد لله رب العالمين » فيحصل للناس بسط عظيم فيما يرويه رجال التاريخ (١)

ومن يقرأ ما يزعم أنه قرآن كريم مترنما على طريقة قراءة القرآن « وما أنتم فى تصديق هود بصادقين ولقد أرسل الله لنا بالمؤتفكات يضربوننا ويأخذون أموالنا وما لنا من ناصرين » (٢)

ثم يعقب على ذلك قائلا « اللهم اجعل ثواب ما قرأناه من الكلام العزيز فى صحائف فلان وفلان »

ويعقب الشعرانى على ترجمته قائلا « ولم أسمع أحدا ينكر عليه شيئا من حاله ، بل يعدون رؤيته عيدا عندهم » .

وجاء الشعرانى كما يجيء المطر للأرض المجدبة التى يريد الله أن يبعثها ويحييها لينفع بها عباده

جاء الشعرانى فى اللحظة الحاسمة التى يهيئها الله جل جلاله خلقه لتكون فاصلا بين عهدين ، وفيصلا بين فكرتين وبداية لصفحة جديدة وحياة جديدة

---

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٦٠ وعلى مبارك ج ٦ ص ٣٣
(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٤

جاء الشعراني فرأى أمة تسبح في الظلمات ، ورأى دولة الدراويش ، دولة الاقطاع الروحي تمرح في الشهوات . وشاهد مدعى الولاية الكاذبين ومتزعمي الطرق الصوفية المضللين . ولبس فيهم أو بينهم مصباح واحد يرسل شعاعا من نوره ليهدى الحيارى إلى الله

فأوقف قلمه ولسانه ، وعقله وحياته ، على الجهاد الأكبر لتطهير المحراب الصوفي من الدجل والشعوذة وتحويل التيار الأعظم المندفع إلى الهاوية ، إلى الجادة المستقيمة الواضحة

ولم تكن الرسالة هينة ، ولم تكن الغاية مأمونة السبل . فالطريق شاق مهلك تقوم فيه الأشواك وتحفه الأهوال ، وتغمره الزلازل والمتاعب .

والشعراني لم يكن في ساعة من حياته ، بل كانت تنوشه أقلام الفقهاء وألسنتهم . فقد جاء مزلزلا لمكانتهم محطما لصولتهم . وتخدشه أنياب رجال الكلام وأظفارهم ، فهو معهم في معركة لم يهدأ أوارها بعد . ويرمقه رجال الحكم والولاة بين الحذر والغضب ، فهو دائما ينازعهم الأمر ، منتصرا للضعفاء ومن في حكم الضعفاء من أصحاب الحاجات وما أكثرهم

والصيحات تأخذه من كل جانب . والمحترفون التصوف دولة ولزعمائهم صولة ومكانة شعبية لا تسامى ولا تضارع

ولكن الشعراني رغم سياسته التي سنعرض لها بعد ، ورغم ليونة قلبه في جداله مع الفقهاء ، وحواره مع رجال التوحيد والكلام لم تزلزله الأهوال التي تحف به ، بل تقدم إلى المعركة الكبرى عنيفا قاسيا على غير عادته . لأنه يعلم علم اليقين أنه ينازل فئة هي أخطر على الاسلام ومقدساته من كل خصم وعدو . تقدم ليحطم الهيكل المدنس على عباده . وليقوض الصرح الظالم على اللائذين به والملتجئين إليه

ثم ليبني على الأنقاض صرح الايمان الصادق وهيكل التصوف الذي هو قمة الايمان وخلاصة الدين ونوره الوضاء المبين

وفى سبيل هذه الغاية المقدسة ألف الشعرانى كتابه العظيم «المنن» لا ليتحدث عن نفسه ولا ليباهى بأخلاقه وأعماله ومقاماته ، كما ظن بعض المستشرقين والسائرين تحت ألويتهم من كتابنا المحدثين . ولكن ليضع أمام أدعياء التصوف . وليضع أمام الأمة الاسلامية التى خدعت فى هؤلاء الأدعياء المثل العليا للأخلاق المحمدية والمثل العليا للآداب الربانية . فقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه خلقه القرآن كما تقول السيدة عائشة رضوان الله عليها وكل متصوف صادق هو على سنن نبيه العظيم وعلى هدى رسوله الكريم ـ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ـ

والمنن من الناحية الموضعية أعظم كتاب أخلاقى فى تاريخ العربية . بل لعله أعظم كتاب للمثاليات الايمانية الصوفية فى تاريخ التعبد الاسلامى

فلقد رسم الشعرانى فى كتابه المنن الخطوط العليا العريضة للآداب الاسلامية من وجدانية ونفسية وعملية . كما رسم الخطوط العريضة الواضحة لما يقابلها من سيئات منحدرة هابطة إلى أسفل . وما يحف بها من شهوات وما يلوذ بها من أحقاد النفس ووساوس القلب وما يعترك فى الطبع الانسانى من غل وحسد وشهوات

فالمنن إذن من الناحية الفنية يفصل مبينا بين التصوف الصادق الذى يرتكز على الخلق المحمدى . وبين أدعياء التصوف المبطلين بأخلاقهم وأعمالهم إلى ما ينكره الاسلام ويبرأ منه الايمان ولا يرضى عنه الخلق الكريم

ولا يضير الشعرانى أنه عمد فى بعض فصول هذا الكتاب إلى ما يشبه الأسلوب العامى . أو الوعظ القصصى ، فلقد هدف الشعرانى منذ خط السطر الأول فى هذا الكتاب إلى مخاطبة الجماهير العامة فى عصره وهى الجماهير التى ضللها أدعياء التصوف . وعبث بها الاقطاعيون الروحانيون

والجماهير العامة فى كل الامم وفى عصر الشعرانى خاصة لا يصلح لها سوى هذا الأسلوب السهل الرقراق . وسوى هذا اللون من الارشاد والتوجيه المبين الواضح القريب من القلوب والأرواح

بل لعل هذا اللون من البيان الذي يشبه الدردشة الكلامية هو الاسلوب الحكيم الذي لا أسلوب سواه يصلح للغاية التي هدف إليها الشعراني ، ورسم خطوطها ، وحدد أهدافها

يقول الشعراني في مقدمة هذا الكتاب

« فهذه جملة من النعم والأخلاق التي تفضل الحق تعالى بها علي أوائل دخولي في محبة طريق القوم رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، كان الباعث لي على تأليفها ورقمها في هذه الطروس أمورا : أحدها ليقتدي بي اخواني فيها ، وكنت آمرهم بالتخلق بها فلا يسمعون ، فقال لي يوما جماعة منهم هذه الأخلاق التي تأمرنا بها لا نجد أحدا تخلق بها من أهل عصرنا حتى نقتدي به فيها . فاستخرت الله تعالى وأظهرت لهم تخلقي بها فاتبعوني عليها وما بقي لكم حجة في ترك التخلق بها فلولا ذلك لربما كان الكتمان لها أولى »

علم الشعراني أن الأخلاق العالية لا بد أن يكون لها رمز تتمثل فيه ، لتشاهدها الأعين حية متحركة قائمة بين الناس وعلم أن أصحابه وأهل عصره لا يمكن أن يتحملوا تلك الثورة الايمانية التي يبشر بها ويحمل أعلامها ، فرمز لهذه الأخلاق بنفسه . هذه الأخلاق التي قال معاصروه عنها انهم لم يروا أحداً متخلقا بها

وليس معنى هذا أن الشعراني كان بعيدا عن هذه الأخلاق أو كان مدعيا في نسبتها إلى نفسه . ولكننا قصدنا أنه صاغها على نفسه ليكون وقعها في معاصريه أكمل وأتم

وفي سبيل هذه الغاية العليا أيضا ألف الشعراني كتابه الفريد البديع (لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية) .

والعهود المحمدية التي عناها الشعراني هي خلاصة الدين الرباني أو صفوة الاخلاق المحمدية ، وكل أخلاقه صلوات الله وسلامه عليه صفوة .